محمد الغزالى



نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم

الأجزاء العشرة الأولى

دار الشروق

نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم

الأجزاء العشرة الأولى

الطبعة الأولى
١٩٩٢م - ١٤١٣هـ

القاهرة . ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٢٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٤٨١٤
برقيا : شروق ـ تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص . ب . ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق ـ تلكس SHOROK 20175 LE

محمد الغزالي



الأجزاء العشرة الأولى

دار الشروق

مقـدمـة

هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم ، سبق أن قدمت نماذج منها فى بعض ماكتبت .

وقد لازمنى شعور بالقصور وأنا أمضى فيها ،فشأن القرآن أكبر من أن يتعرض له مثلى ، ولكنى حرصت على أن أزداد فقها فى القرآن وتدبُّرا لمعانيه .

وقلت : قد أرتاد طريقا لم أُسَبق إليه أفتتح به بابا من أبواب الخير ، والقرآن لاتنقضى عجائبه، ولن نبلغ مهما بذلنا مداه !!

والهدف الذى سعيت إليه أن أقدم تفسيرا موضوعيا لكل سورة من الكتاب العزيز .

والتفسير الموضوعى غير التفسير الموضعى : الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام !

أما الأول فهو يتناول السورة كلها يحاول رسم «صورة شمسيَّـة» لها تتناول أولها وآخرها ، وتتعرف على الروابط الخفيَّة التى تَشُدُّها كلها ، وتجعل أولها تمهيدا لآخرها ، وآخرها تصديقا لأولها.

لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع فى السورة ، وإن كثرت قضاياها ، وتأسّيت فى ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة ـ وهى أطول سورة فى القرآن الكريم ـ فجعل منها باقة واحدة مُلوَّنة نضيدة ، يعرف ذلك من قرأ كتابه « النبأ العظيم » وهو أول تفسير موضوعى لسورة كاملة ، فيما أعتقد . .

وعلماء القرآن أجهزة استقبال لما يؤتيهم الله من فهم فيه ، فالفضـل أولا وآخـرا لمن أسدى تبارك اسمه ! .

وقد شعرت ـ على ضوء ما أحسست من نفسى ـ أن المسلمين بحاجة إلى هذا اللون من التفسير! كيف ؟ لقد صحبتُ القرآن من طفولتى ، وحفظته فى سن العاشرة ، ومازلت أقرؤه وأنا فى العقد الثامن من العمر . .

بدا لى أن ما أَقْبِس من معانيه قليل ، وأن وَعيِى لايتجاوز المعانى القريبة والجُمَل المردَّدة ، فقلت : إنى ما قضيت حق التدبُّر فيه كما أمر منزله العظيم !

يجب أن أغوص فى أعماق الآية لأدرك رباطها بما قبلها وما بعدها ، وأن أتعرف على السورة كلها متماسكة متساوقة . . .

ثم شعرت بأن همتى دون هذه المهمة ! ! وكدت أتوقف ! ثم قلت : لأن أقطع شوطا أو شوطين فى هذا الطريق أفضل من أن استسلم للعجز فى المراحل الأولى .

فاسترسلت مسستعينا بالله ، معتمدا عليه وكتبت هذه الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم على أمل أن يأتى الأجل بعد ما أفرغ من الكتابة ، والمستقبل بيد الله وحده . . .

وأكرر أننى مستكشف قاصر ، وأن الوادى الذى أستقى منه يسيل على قدْرى أنا ـ وهو محدود ـ ولكنه يحُثُّ الخطى إلى ماهو أبعد ، ويحدو أولى الألباب إلى الشأو الأعلى فى خدمة القرآن ، وإماطة اللثام عن روائعه وبدائعه . . . .

إننى أختار من الآيات مايبرز ملامح الصورة ، وأترك غيرها للقارئ يضمها إلى السياق المشابه ، وذلك حتى لايطول العرض ويتشتت ، والإيجاز مقصود لدىّ . . . .

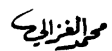
وأنبه إلى أن هذا التفسير الموضوعى لايغنى أبدا عن التفسير الموضعى بل هو تكميل له وجهد ينضم إلى جهوده المقدورة . .

وهناك معنى آخر للتفسير الموضوعى لم أتعرض له ! وهو تتبُّع المعنى الواحد فى طول القرآن وعرضه وحشده فى سياق قريب ، ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس . . .

وقد قدمت نماذج لهذا التفسير فى كتابى « المحاور الخمسة للقرآن الكريم » « ونظرات فى القرآن » .

ولاريب أن الدراسات القرآنية تحتاج إلى هذا النسق الآخر ، بل يرى البعض أن المستقبل لها ! وعلى كل حال فالقرآن الكريم دستور الإسلام ومعجزته الباقية ، والمورد الذى نتردد عليه فنحسّ الحاجة إليه آخر الدهر .

والحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب وجعله هدى لأولى الألباب ، وحصّنه من الخطأ ومحضه للصواب . . .



سورة الفاتحة

باسم الله خير الأسماء . باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء . .

بسم الله الرحمن الرحيم .

سورة الحمد من قصار السور ولكنها أم الكتاب ، وأعظم سوره .

تضمنتْ خلاصة وجيزة لعقائد الإسلام ، وعهدًا وثيقًا بين الناس وربهم يحقق رسالتهم فى الوجود ، ورجاء في الله أن يهدى الطريق ، ويمنح التوفيق ، وينعم بالرضا . . .

ولننظر فى الآية الأولى « الحمد لله رب العالمين » .

الحمد لفظ تلتقى فيه معان ثلاثة ، فهو ثناء يكشف عن أمجاد الذات العليا من جلال وجمال وكمال ، وهو مديح على ما ننال من عطاء ونعماء ، جاد بها ولىّ النعم ، وهو شكر يقابل الخير النازل والفضل المُسْدَى .

وعندما نصبح فنقول مثلاً « الحمد لله الذى أحيانا من مماتنا وإليه النشور » فنحن نثنى ونمدح ونشكر .

« ورب العالمين » سيد العوالم كلها من العرش إلى الفرش ، من السماء إلى الأرض ، من الحيوان إلى النبات ، من الملائكة إلى البشر .

والعالم ما عدا الله من خلق ، وما عدا الله مَرْبوبٌ له فقير إليه . .

نعم كل ماعدا الله عبد له ، صنيعة نعمته ، « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

« الرحمن الرحيم » نحن فى رحمته نعيش ، والرحمة والعلم يسعان كل شىء ، ولولا أن الله غفور رحيم لفتكت بنا معاصينا وقضى علينا جحودنا وطغياننا .

« مالك يوم الدين » المقصود بالدين الجزاء ، وهو بداية العالم الآخر ، والعالم الآخر هو المقابل لعالمنا المعاصر .

والحضارة المادية المسيطرة على الحياة الآن قلّما تذكره ، بل لعلها ترى من الهزل ذكره .

وهى تتعمد نسيانه فى ميادين التربية والتشريع والسياسة الدولية والمحلية مع أنه الحقيقة العظمى ، الأجدر بالرعاية والحساب . .

« إياك نعبد وإياك نستعين » نعبدك وحدك يا الله ، ونستعين بك لابغيرك ، فكل غيرٍ محتاج إليك ، كما جاء فى السنة « اللهم أعنّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » .

«اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم . . » الخط المستقيم أقصر طريق بين نقطتين ، ولذلك لايتعدد ، ومن استقام اهتدى إلى الله « إن ربى على صراط مستقيم » .

ودين الله واحد ، بلغه الأنبياء على اختلاف الأعصار والأمصار ، أساسه إله واحد ، له الولاء، وله الثناء ، يفتقر إليه أهل الأرض وأهل السماء .

ولعل هذه النقطة مثار الخلاف بين أتباع الأديان المعاصرة ، فالمسلمون يوقنون بأن ماعدا الله عبد له خاضع لحكمه عانٍ لأمره فى الدنيا والآخرة .

ويستحيل أن يتجاوز هذه الحقيقة بشر أو ملك . . فمن لزمها نجا ومن زاغ عنها هلك . .

وكل من أحسن طاعة الله ورسله بلغ هذه الغاية « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » أما من أشرك بالله شيئا ، أو رفض الانقياد لأمره ، فهو بين الضلال والغضب لا أمل له ولا خير فيه . . . « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » على الإنسان أن يكون صائب الفكر صادق النظر ، فإذا اهتدى إلى الحق فعليه أن يعمل به ويتواضع لربه ، ويرفق بعباده . .

وهذه السورة فرض الله قراءتها فى جميع الصلوات ، لتكون مناجاة متجدِّدة مقبولة بين الناس ورب الناس ، فهى حقائق علمية ،وهى فى الوقت نفسه ، ضراعة عبد ينشد رضا مولاه . . .

وقد جاء فى السنة « قسمتُ الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ماسأل فإذا قال : «الحمد لله رب العالمين » قال الله : حمدنى عبدى ! وإذا قال « الرحمن الرحيم » قال الله أثنى علىّ عبدى . ! فإذا قال : « مالك يوم الدين » قال الله : مجّدنى عبدى ، أو فوّض إلى عبدى !

فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين » قال الله : هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ماسأل . فإذا قال : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » قال الله : هذا لعبدى ولعبدى ماسأل . . . !!

ونحن نكرر الدعاء لأنفسنا ، كما نكرر غسل أعضائنا لأن أسباب هذا التكرار قائمة ،

فالجسم الإنسانى لايكفى فى تطهيره أن يغسل مرة أو مرتين ، لابد من تكرار الغسل مدى الحياة!!

والطبع البشرى لا تصقله دعوة أو دعوتان لابد من تكرار الوقوف بين يدى الله لأن رعونات النفس ووساوس الشيطان لاتنتهى ، فلابد من تكرار الدعاء ، واستدامة التضرع « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » .

وهكذا فى سطور قلائل تم تصوير العلاقة الوحيدة الممكنة بين الناس ورب الناس .

الاعتراف به ، والثناء عليه ، والاستعداد للقائه والتعهُّد بعبوديته ثم الرجاء إليه أن يجعلنا كما يحب . . .



اتجهت الجهود بعد الهجرة إلى تكوين المجتمع الإسلامى الأول فى المدينة المنورة ، لقد نجح المسلمون أفرادا فى مقاومة فتن الوثنية ، وهاهم أولاء قد خلصوا بدينهم ، ووجدوا دارا تجمع أمتهم، وتقيم دولتهم . .

لكنهم فوجئوا بعداوة من نوع آخر ، عداوة اليهود الذين حسبوا الدين حكرا على جنسهم ، فتجهموا للمنافسين الجدد ، وشرعوا يستعدون لمقاومتهم ، ويتآمرون سرا وعلنا على الكيد لهم . .

والقبائل اليهودية التى استوطنت البقاع الخصبة فى الحجاز ، بدأت حياتها فارَّةً بعقائدها من بطش الرومان ، وقد عاشت بين العرب الأميين مترفعة عليهم ، فما حاولت محاربة الأصنام ، ولا أنشأت دعوة إلى الله ، ولا عرضت تعاليم السماء لتغنى عن تعاليم الأرض . .

كلا ، لقد نأت بنفسها ، واستراحت إلى مواريثها ، وظنت أن الدين امتياز لها ، ماينبغى أن يشركهم فيه أحد !!

فهل بقيت على هذا الشعور عندما ظهر الإسلام ؟ لا ، لقد رفضته ، وقلَّبت له الأمور . . .

وحاول النبىّ الخاتم أن يستلين جانبهم ، ويتعاون على الخير معهم ، بيد أن حقدهم غلب ، وبدأ شرهم ينمو ، فكان المسلمون فى مهجرهم الذى ظفروا به يبنون بيد ، ويقاومون بأخرى ! يؤسسون مجتمعهم وفق إشارات الوحى ، ويدفعون عنه أعداء لايخفى لهم ضغن !!

فى هذا الجو نزلت سورة البقرة أطول سور القرآن الكريم وأحفلها بالتعاليم المنوّعة . . .

وبطريق التلميح أشارت إلى زيف مابأيدى اليهود « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين»[1] كأن الكتب الأخرى موضع ريبة ، وكأن مافيها من خليط لايصنع تقوى ، ولا يزكّى سيرة !!

وخلالُ المتقين التى أحصتها سورة البقرة كثيرة ، فقد تكررت مادة التقوى خلال السورة بضعا وثلاثين مرة ، لاتشبهها فى ذلك سورة أخرى ، والتقوى هى الصفة الجامعة التى طُلبت من سائر الأمم فى شتى الرسالات « ولله مافى السموات وما فى الأرض ، ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم ، أن اتقوا الله . . »[2] .

(١) البقرة : ٢ — (٢) النساء : ١٣١

وتمتاز سورة البقرة بأنها تحدثت عن أركان الإسلام الخمسة «يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم» [١] ، « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين»[٢]، « يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة»[٣]، « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم . . »[٤]، «وأتموا الحج والعمرة لله . . »[٥] .

وقد ظلت السورة مفتوحة يضم إليها النبى الكريم ماشاء الله أن يضيفه إليها من وحى يتصل بموضوعها .

ومعروف أن آخر آية نزلت من القرآن كله هى قوله تعالى : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون »[٦] وقد أمر النبى عليه الصلاة والسلام بضمها إلى الآيات التى تتحدث عن الربا فى خواتيم سورة البقرة . . .

وننظر إلى الصفحات الأولى من السورة ، فنجدها وصفت الأتقياء فى ثلاث آيات ، ووصفت الكافرين فى آيتين ، ووصفت المنافقين فى ثلاث عشرة آية ! وذلك يدل على استطارة شرهم وخطورة أثرهم على الجماعة كلها . .

وبعد دعوة عامة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وحديث وجيز عن إعجاز القرآن الكريم ، وصدق صاحبه ، وخسار عدوه ، عاد الحديث إلى صنوف الناس بإزاء الرسالة ، وتباين مواقفهم بين مؤمن وكافر ، أو بين ناقض للعهد وموفٍ . .

أكان رب العالمين جديرا بهذا الموقف الخسيس ؟ هل جزاء النعمة المسداة ، نعمة الإيجاد والإمداد أن نكفر صاحبها ؟ وبهذا الكنود !! « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون»[٧] .

وكان طبيعيا بعدئذ ذكرُ بدء الخلق ، وتكليف البشر ، والصراع الدائم بين آدم وبنيه ، وإبليس وذريته ! إن هذا الصراع ظهر فى صورة عداوة مُرّة بين خاتم الدعاة وبنى إسرائيل ، الذين آثروا أن يكونوا جند إبليس فى معركته الخالدة ضد الحق . .

كان لابد ـ وسورة البقرة أول مانزل بالمدينة ـ أن تتصدّى السورة لبنى إسرائيل ، مفندة موقفهم من الرسالة الخاتمة ، ومسالكهم المعيبة فى القديم والحديث !!

---

(١) البقرة : ٢١ — (٢) البقرة : ٢٣٨ — (٣) البقرة : ٢٥٤
(٤) البقرة : ١٨٣ — (٥) البقرة : ١٩٦ — (٦) البقرة : ٢٨١
(٧) البقرة : ٢٨

وبدأ ذلك من قوله تعالى : « يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ، وإيّاى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به . . . »[١] .

وتصديق القرآن لما مع اليهود إنما هو تصديق على الإجمال ، فأهل الكتاب ليسوا كعبدة الأوثان فى الكفر بالله وإنكار الوحى الذى أنزل على المرسلين ! إن القرآن يصدقهم فيما يذكرون من إيمان بالله ، وإثبات للوحى ، وتكليف للناس ، وحساب على الأعمال ! لكنه لايصدقهم حين يذكرون أن الله مثلا ندم على إغراق الأرض بالطوفان ، ثم ندم على ماصنع واحتاج إلى من يذكره حتى لايفعلها مرة أخرى !

إنه لايصدق العهد القديم حين يذكر أن الله نزل يتمشى على الأرض ثم مال إلى نبيه إبراهيم حيث تناول معه الغداء . . !! ولايصدقه حين يذكر أن الله صارع يعقوب ليلا طويلا ، ثم لم يفلته حتى منحه لقب إسرائيل !

إن تصديقه لما مع بنى إسرائيل هو ـ على الإجمال لا على التفصيل ـ والمجمل الذى سلمه لهم ، أو وافقهم عليه إنما ذكره ليحاسبهم على ضوئه حسابا عادلا .

وقد أحصت سورة البقرة أكثر من ست عشرة مرة شئونا وقضايا عرضت للقوم فى تاريخهم الطويل ، وذكرت لديهم فى التوراة ، ومع ذلك لم يكونوا عند حسن الظن فى الاعتبار بها وشكر الله عليها .

ويبدأ هذا الإحصاء من قوله تعالى : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب»[٢] هل قدّروا نعمة هذه النجاة ؟ ثم عاقب الله عدوهم فأغرقهم أمام عيونهم ، فهل شعروا بعدالة هذا القصاص ، وحمدوا ربهم على هلاك الظلمة ؟

واتصل السرد القرآنى فى صفحات طوال يذكّر ويتساءل ! فهل استيقظ الضمير اليهودى بعد هذه القائمة من الحساب الطويل أم بقى أكفر من عبدة الأوثان بنبىّ القرآن ؟

هذا ماسجلته سورة البقرة من تاريخ القوم لتخلص منه إلى شأن أهم هو مانسميه بالوحدة الدينية كما صورها القرآن الكريم فى هذه السورة .

* * *

---

(١) البقرة : ٤٠ ، ٤١ (٢) البقرة : ٤٩

فى وجه تعصب دينى ضيق ينشد الإسلام للناس كافة وحدة دينية سمحة ، تقوم على الفطرة السليمة والمنطق الواعى ! إن اليهود والنصارى يرون الحق حكرا عليهم وحدهم ، وأن النجاة لن تكون إلا لهم ! .

لماذا يرسل هذا الحكم المتحيز ؟ « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ! تلك أمانيّهم ، قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين»[١] . هناك ناس آخرون حسنت معرفتهم لله ، وأسلموا له وجوههم ، وأخلصوا نياتهم ، وأصلحوا أعمالهم ، لماذا يُهدر جهدهم ؟ « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[٢] .

على هذا الأساس طلب القرآن من أهل الكتاب أن يؤمنوا بالله ورسله جميعا ، وأن ينخلعوا من أنانيتهم التى تزين لكل طائفة أن الحق لديها وحدها « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل : بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين »[٣] . ثم طلب منهم توسيع دائرة الإيمان حتى تشمل كل نبىٍّ أرسله الله لهداية الناس ، فلا مساغ لاستثناء أحد « قولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون »[٤] .

هذه أصول الوحدة الدينية التى شرحتها سورة البقرة ، وعرضتها على اليهود والنصارى ، كى يدخلوا فيها ، ويتآخوا مع المسلمين فى ظلالها ، وقبيل هذا التفصيل بيّن القرآن الكريم أن الإسلام المعروض ليس شيئا جديدا ، إنه دين المرسلين الأوائل . .

يفخر اليهود بأنهم أبناء يعقوب الذى لقب بعد بإسرائيل ، والذى أقيمت دولة فى هذا العصر باسمه ! ماذا كان يعقوب ؟ كان رجلا حسن الصلة بالله ، يعرفه معرفة وثيقة ، ويستسلم لقضائه وقدره ، ويدعو أولاده للإيمان به ، ويستوثق قبل مماته من أنهم لن يفرطوا فى هذا الإيمان مثقال ذرة . . « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه : ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلـهك وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلـها واحدا ونحن له مسلمون »[٥] .

إن هذا الإسلام هو العلاقة العقلية الوحيدة بين الكائنات وربها ، بين الناس وخالقهم ! أليس من حق الموجد الأعلى أن ترنو إليه الموجودات عابدة خاشعة ؟ إذا لم يكن الإسلام لله دينا فهل التمرد عليه هو الدين ؟ هل تجاوُز حقه هو الدين ؟ هل الحكم بغير ما أمر هو الدين ؟

---

(١) البقرة : ١١١ (٢) البقرة : ١١٢ (٣) البقرة : ١٣٥

(٤) البقرة : ١٣٦ (٥) البقرة : ١٣٣

إن محمدا ردّ الأشياء إلى أصولها ، ومهّد لله سبيلا لاسبيل غيرها ، ولذلك جاء فى هذه السورة «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »[1].

ونلحظ فى هذه الآية أدبين كريمين : الأول أنه طلب الإيمان بمثل إيماننا ، ولم يقل بإيماننا نفسه تلطفا معهم وتقديرا لأشخاصهم ، كأنه يمنحهم حرية التصرف ، وإلا فالإيمان واحد !

أما الأدب الثانى فإن تكذيبهم لم يُجعل سببا للهجوم عليهم ، بل تُركوا وشأنهم ! فإذا جاش الشر بأنفسهم وبدأوا العدوان فإن الله سيحمينا وهو حسبنا . .

تلك معالم الوحدة الجامعة كما رسمتها هذه السورة ، وبقى أن نزيل لبسا قد يخالط بعض الأفهام : مامعنى أن الرسل جميعا مسلمون ، والمعروف أن الإسلام هو الدين الذى طلع به محمد على الناس ؟ .

الحقيقة المؤكدة أن الدين منذ الأزل واحد ، إيمان بالله ، وإصلاح للعمل ، وهما معنى الإسلام!

المعرفة النظرية لاتكفى ، فلابد مع المعرفة أن نقول لربنا : « سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير »[2] . ومعرفة إبليس أن الله واحد ، خلق الكل لاتغنيه شيئا ، لابد أن يُضمّ إلى هذه المعرفة استسلام لأمر الله ، وسعى إلى استرضائه ، ومادام قد أبى ذلك فقد طرد من رحمة الله .

وقد جاء المرسلون قاطبة يعلنون معرفتهم بالله على الوجه الصحيح ، كما يعلنون طاعتهم لله فى كل ماكلف العباد به !!

هكذا فعل نوح وإبراهيم ، وهكذا فعل موسى وعيسى ومحمد ، ولانسرد هنا الآيات التى أعلنوا فيها إسلامهم ، فالأمر يطول . . . الجميع كانوا دعاة إلى الإسلام ، وإن تفاوتت التشريعات الفرعية على اختلاف العصور .

إن الإنسان فى صغره قد يسمى فلانا ، فإذا كبرت سنه لم يتغير اسمه ، وإن اتسعت الدائرة التى تتمّ فيها تصرفاته ، وليس من العقل أن نتصور دائرة التدين فى هذا العصر تنطبق على دائرة التدين فى عصر نوح ، إن مركز الدائرة واحد هنا وهناك ، ولكن محيطها قد يتسع باتساع العمران ، والشبكة الكهربائية قد تكون ميلا فى بعض القرى ، ولكنها تكون أميالا طويلة فى بعض العواصم ، والتيار واحد . .

---

(١) البقرة : ١٣٧ (٢) البقرة : ٢٨٥

وقد ظهر محمد بعد تجارب هائلة خاضها موسى وعيسى مع الناس ، فهل يستكثر على الدين الخاتم أن يصحح أخطاء جدَّتْ ، وأن يقيم طرقا اعوجت ، وأن يمحو بدعا حدثت ، وأن يسرد فى كتاب جادّ مفصل الحقائق التى ذهل عنها هؤلاء وأولئك . . ؟

كانت بعثة محمد ضرورة ماسة لتصويب خطى الإنسانية التى شردت ، وكانت لفتًا لأنظار أهل الكتاب خاصة إلى المآسى التى ألحقوها بالناس . .

بالنسبة إلى النصارى كان لابد من توكيد وحدانية الله ، وإظهار عيسى عبدًا كسائر المخلوقات ، مع الإشارة إلى أنه وحَوارِيِّيه دعاة إلى الإسلام الحق . وبالنسبة إلى اليهود كان لابد من توبيخهم على كبرهم ، واستخلاص الوحى السليم من براثنهم ، وإظهار أن الله ليست له بجنس مًّا صلة خاصة .

إن الصالحين الأوائل من أتباع موسى وعيسى ينضمون إلى أتباع محمد أو ينضم إليهم أتباع محمد فى هذا الحكم الجامع « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الأخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون »[١] .

أما بقايا أهل الكتاب التى تعيش الآن لاتدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، وتهرع وراء شهوات الدنيا مسابقة عبدة الأوثان فلن يقبل لهم زعم . . فكيف إذا انضم إلى عوجهم البادى حقد رهيب على الموحدين وإصرار على هدم مساجدهم ، وفض مجامعهم « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، وسعى فى خرابها ، أولئك ماكان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »[٢] .

إن السورة التى نزلت بعد الهجرة مباشرة ، والتى عاصرت بناء الجماعة الإسلامية على دعائمها العتيدة ، أرست الأصول التى تقوم عليها العلاقات بين أتباع الأديان المختلفة ، فى الوقت الذى تنادى فيه بوحدة الدين عودة إلى تعاليم جميع المرسلين .

* * *

(١) البقرة : ٦٢ (٢) البقرة : ١١٤

استقبل اليهود الإسلام أول ماظهر بإنكار ومقت ، فقد كانوا يحسبون أن الدين حكر عليهم ، وأنه لن يتجاوزهم إلى جنس آخر ، فلما تمت الهجرة ، واقترب الإسلام من مستوطناتهم ، قرروا الاحتيال فى حربه والمكر بأتباعه .

وعرض عليهم النبى صلى الله عليه وسلم صحيفة تنظم العلاقات بين المسلمين وغيرهم ، على أسس من المهادنة والتناصر ، فقبلوا الصحيفة على مضض ، ومضوا فى طريقهم يسخرون من الدين الجديد ، ويؤلبون عليه ، ويطعنون فيه . . .

وتنزّل الوحى فى صفحات متصلة يوبخ اليهود على مواقفهم ويقرعهم على مابدر منهم فى ماضيهم الطويل ، ولم يُجْد ذلك فتيلا فى كسر غرورهم ، وإلانة قلوبهم !! فرأْيُهم فى أنفسهم أنهم وحدهم أهل الوحى ، وأنه لايجوز لله أن يختار نبيا بعيدا عنهم .

وقد شكَّك القرآن الكريم فى دعاواهم كلها ، إذا كنتم مؤمنين بما لديكم فلم تنكرون مايصدقه؟ « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بماوراءه وهوالحق مصدقا لما معهم ، قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين »[1]؟

ومضى القرآن يثبت عليهم أنهم كاذبون فى دعوى الإيمان ، وإلا ماقتلوا الأنبياء ، ونقضوا المواثيق ، واقترفوا المعاصى ، أهذا إيمان ؟ « بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين »[2] .

وأحصت عليهم سورة البقرة بضعة عشر تذكيرا بما كان منهم لعلهم يَرْعَوُون ! وهيهات .

لكن هذا التذكير إذا لم يثن اليهود عن عوجهم ، فهو تعليم للأمة الإسلامية أن تستقيم وتستفيد ، وأن تتجنب مسالك المغضوب عليهم ، لقد قال لليهود من قبل : «وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم . . »[3] وهاهو ذا يقول للمسلمين : « فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولاتكفرون ، يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة . . »[4] .

وإذا كان اليهود قد حرصوا على الدين شكلا لاموضوعا ، وتشبثوا بالقشور ، ونسوا اللباب ، فاستمسِكوا أنتم أيها المسلمون بالحق الأصيل وأركانه المنشودة « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . . »[5] إلى آخر الأركان الستة التى تشرح حقيقة البر ، وترسى دعائم التقوى . . .

---

(١) البقرة : ٩١
(٢) البقرة : ٩٣
(٣) البقرة : ٤٠
(٤) البقرة : ١٥٢ ، ١٥٣
(٥) البقرة : ١٧٧

وتستطرد السورة فى بناء المجتمع الجديد ، فتشرح كما ذكرنا أركان الإسلام الخمسة ، ثم تفيض فى حديث عن الأسرة المسلمة ، شارحة أحكاما كثيرة فى بنائها وقيامها وحياطتها .

ولا تنسى وهى تتدفق فى هذا الشرح أن تشير إلى ما سلف من اليهود ، وكيف تكاثرت بينهم آيات الله فأهدروها ، فحقت عليهم كلمة ربك « سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ، ومن يبدل نعمة الله من بعد ماجاءته فإن الله شديد العقاب»[١] .

أهذا التقرير من قبيل المثل المعروف « إياك أعنى واسمعى ياجارة » ؟

إن هذه السورة تحدثت عن حماية المجتمع الكبير بالجهاد ، وعن حماية المجتمع الصغير ـ وهو الأسرة ـ بفنون من الأحكام التى تصونها ، ولكننا نحن المسلمين تهاونا فى الأمرين معا ، فلنؤخر مؤقتا الكلا م عن جو الأسرة الإسلامية ، ولنتناول بإيجاز قضية القتال ، وكيف شرحها القرآن الكريم شرحا ينفى عن الجهاد المشروع كل شائبة للعدوان . .

إننا معشر المسلمين لانحب الحروب ، ولانعشق مافيها من دمار وخسار ، إننا نؤثر العافية ، والاستقرار بين الأهل والأحبة ، وقد أقر الإسلام مؤقتا هذه المشاعر « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون »[٢] .

لا بأس بالسلام مع صون الحقوق واحترام العقيدة ، أما إذا كان السلام يعنى الاستسلام وقبول الدنية فلا مرحبا به !!

وفى شرح القرآن لاستباحة الشهر الحرام ترى هذه الموازنة ، « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . . . قل قتال فيه كبير »[٣] أى لايجوز ، لكن ، ما العمل إذا أقررتم فيه العدوان ، ومطاردة الآمنين ، وصادرتم حق العبادة الصحيحة ؟ ألا يجب رد العدوان وحماية الحقائق والحقوق « . . . وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله . . »[٤] والنتيجة «والفتنة أكبر من القتل »[٥] فليكن القتال دفاعا عن الحرمات والعقائد .

وما العمل إذا كنا نتعامل مع قوم لايرضون عنا حتى ندع مالدينا وندخل فى ملّتهم ؟؟ إن القتال هنا لابد منه ، ولن نُسأل بداهة عنه ، المسئول عنه غيرنا . .

بعد سرد هذه المقدمات نفهم معنى قوله تعالى فى سورة البقرة : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين »[٦] هذا حكم خالد إلى قيام الساعة ، وكل ماورد فى القرآن الكريم من أول المصحف إلى آخره يتفق مع هذا الحكم ، وقد وهَل قوم أن سورة براءة

---

(١) البقرة : ٢١١ (٢) البقرة : ٢١٦ (٣، ٤، ٥) البقرة : ٢١٧

(٦)البقرة : ١٩٠

تضمنت حكما مناقضا لما جاء هنا ، وهذا خطأ مؤسف ، فالأمر بالقتال فى سورة براءة لم يكن لقوم منصفين أو محايدين أو معتدلين ، بل كان لقوم فى أفئدتهم لَدد ، بسطوا أيديهم إلينا بالأذى ، ومن ثم يقول القرآن فى وصفهم : « إنهم ساء ماكانوا يعملون . لايرقُبون فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون»[١] .

ثم يحرص على مواجهتهم بالقتال العادل الحق « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول ، وهم بدؤوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » ! ![٢] .

فكيف يفهم أحد أن القتال هنا لقوم غير معتدين ؟ وأن الحكم هنا نسخ الحكم الوارد فى سورة البقرة بأنه لاقتال إلا للمعتدين ، إن هذا فهْم سوء ، وقول منكر بنسخ أحكام خالدة ، وفتح لباب التهم المؤذية ، ونحن الملومون ! .

ونشير هنا إلى أن القرآن الكريم يصف القتال الصحيح المقبول بأنه فى سبيل الله ، ليس فى سبيل مجد شخصى ولا منفعة خاصة ، ولا قومية باغية تزعم مثلا أن ألمانيا أو انجلترا فوق الجميع . .

والقتال الذى ساد العالم فى الأعصار الأخيرة كان لنهب ثروات المستضعفين ، واستعمار أرضهم لحساب السلاح الأقوى والطرف الأعتى ، إنه ليس قتالا فى سبيل الله أبدا ، إنه قتال فى سبيل الشيطان . .

إن القتال فى سبيل الله يكون لاستبقاء عبادة الله ، ورفض عبادة الشيطان ، ومن الأزل كان الصالحون يتحملون أعباء هذا القتال حتى تبقى بيوت الله عامرة بعباده «و من أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها . . ؟[٣] .

من أجل ذلك قال فى تسويغ هذه الحروب « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين [٤] » نعم فبقاء الحق مرهون بشجاعة رجاله وتفانيهم فى إعلاء رايته واستبقاء كلمته .

* * *

(١) التوبة : ٩، ١٠ (٢) التوبة : ١٣
(٣) البقرة : ١١٤ (٤) البقرة : ٢٥١

فى سورة البقرة حديث طويل عن قضايا الأسرة ، ولما كانت السورة فى أوائل المصحف الشريف ، فقد يُظن أنها أول ماقيل فى هذا الموضوع ! وهذا خطأ فإن نحو ثلثى القرآن الكريم نزل قبل هذه السورة المباركة ، وتضمّن تمهيدات لابد من استصحابها عند التأمل فى أحكام الأسرة هنا .

من ذلك المساواة الإنسانية بين نوعى الذكر والأنثى ، التى وردت فى سورة النحل « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون»[1] .

ومن الطريف أن هذا الحكم قرره مؤمن آل فرعون وهو ينصح جبابرة عصره « من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب »[2] .

وجاء فى سورة الروم عند الحديث عن آيات الله فى ملكوته « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة[3] » وأكد ذلك فى سورة النحل وهو يسرد نعم الله على عباده « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة»[4] .

إن فهم وضع المرأة ، ومكانة الأسرة سبق الحديث عنهما ، فلا غرابة فى أن تحتوى سورة البقرة تفاصيل لما قد يقع من نزاع ، أويجدّ من أحداث ينبغى تعرُّف حكم الله فيها . . ، لاغرابة إذن فى ذكر الإيلاء ، والطلاق والخلع والولادة والرضاع . . إلخ .

وشرائع الأسرة يستحيل أن تنجح بعيدا عن ضوابط الخلق والإيمان والتقوى ، وقد لفتت النظر إلى أن المسلم قد يراجع نفسه بعد الطلاق ، فلا يمضى فى طريق البتِّ وقطع الحبال ، بل يجب أن يعمل عقله ، جاء ذلك فى ثمانية توجيهات ، تلاحقت فى أثناء تقرير هذا الحكم المهم ، وقد جاءت كلها فى أعقاب قوله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن (١) فأمسكوهن بمعروف (٢) أوسرحوهن بمعروف (٣) ولاتمسكوهن ضرارا لتعتدوا (٤) ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه (٥) ولاتتخذوا آيات الله هزوا (٦) واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به (٧) واتقوا الله (٨) واعلموا أن الله بكل شىء عليم»[5] .

ماذا يصنع دين أكثر من ذلك فى لزوم التروِّى والأدب وصون الحاضر والمستقبل ؟ ومع ذلك فقد بلغ الهوس فى إيقاع الطلاق حد الجنون ، فقد يعلِّق رجل طلاق امرأته على شرب سيجارة ، ثم يدخن وينهدم البيت ، وتتمزق الأسرة شظايا ، ويُتهم الإسلام بالحيف على المرأة !!

---

(١) النحل : ٩٧ (٢) غافر : ٤٠ (٣) الروم : ٢١
(٤) النحل : ٧٢ (٥) البقرة : ٢٣١

وقد أشرت فى مقال آخر إلى كلمة « حدود الله » التى تكررت ست مرات فى آيتين من آيات الطلاق، ختمتا بقوله تعالى : « وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون »[1] ! !

وأغلب المسلمين لايعى هذه الكلمة ، ولايدرى كم تكررت ، ولا لم تكررت ؟؟ ويبدو أنهم قوم لايعلمون ! !

وقد ظُلمت المرأة فى بيئات كثيرة ، وغريب أن يُرَدّ الحيف عليها إلى تعاليم الإسلام التى أنصفتها ! !

لقد قال الله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة[2] » والآية ظاهرة فى تبادل الحقوق والواجبات ، وفى تقرير درجة رياسة الرجل ، مع إتمام هذا التبادل ، لكننى لاحظت فى بعض الأوساط الهابطة ، أن المرأة عليها وليس لها ، وأنها تعامل بامتهان وغلظة، وأنها قد تأكل الفضلات فى البيت ، وتذهب أطايب الطعام إلى غيرها . .

كيف تُنسَب هذه الجلافة إلى دين من الأديان بله الإسلام ؟

وأعرف أن هناك نسوة شريرات يملأن البيوت متاعب ، والحل لهذه المشكلات كلها لايقوم به رجال الشرطة ، بل يعتمد على حسن التربية والتزام التقوى ، والوقوف عند حدود الله . . .

إنه لابد من علم واسع وخلق كريم وتربية أصيلة ، وأهل لهم عدل وإنصاف ، وأمة قوّامة بأمر الله . .

وقد رأيت أن أجهزة التبشير ترقب العالم الإسلامى بمكر ، وتحاول اختراقه من ثغرات تتوهمها أو تجدها ، وقد رأت أن أعدادا من المسلمين تهين النساء ، وتستكثر عليهن ما آتاهن الشارع الحكيم فسعت إلى تنصير المرأة وإشاعة أن المراد إنقاذها من جَوْر الإسلام ! !

وتوجد الآن جمهرة من المثقفات وقعن فى هذا الشَّرَك ، والسبب الأول بعض المتحدثين فى الدين من الجاهلين والتافهين . .

كنت فى أحد المجالس فقلت : إن حق الخلع للمرأة يكافئ حق الطلاق للرجل . . وإذا وجدت امرأة لاتطيق زوجها بغضا لأسباب تبديها أو تخفيها ، وعرضت أن تعطيه ماساق إليها من مهر ، فما المانع أن يجيبها القضاء إلى ماتبغى . . ؟

قال أحد السامعين : للقاضى حق التطليق للضرر ! قلت : هذا شىء آخر إنها لم تشْك ضررا، وإنما تذكر أنها تكره البقاء مع رجلها لأمر ما ، وتريد تعويضه عن كل ما أنفق عليها ،

---

(١) البقرة : ٢٣٠ (٢) البقر ٢٢٨

فلماذا نبقيها معه ؟ قال : هذا لايجوز مادام الرجل راغبا عن الطلاق ! قلت : بل هو جائز ، وللقاضى أن يتصرف بالصلح أو بالخلع .

وعلمت بعد أن الرجل يتهمنى بما أنا منه براء ، لأنه غير فقيه فى الكتاب والسنة !! وويل للعالم من الجهال . .

الاتجاه عند بعض المتدينين إنكار أن تكون للمرأة شخصية متميزة ، مع أن القرآن قرر أن امرأة نوح غير نوح ، وأن امرأة فرعون غير فرعون ، وأن لكل مسلكه وسيرته «لاتزر وازرة وزر أخرى . . »

وعندما تلد المرأة فإن المغانم والمغارم قسمة بين الزوجين ، « لاتُكلّف نفس إلا وُسعها ، لاتضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده [1] » وعند بلوغ الفطام يتشاوران معا فى ذلك « فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاوُر فلا جناح عليهما . . »[2] .

ومن الشرائع التى نُسيت فى كثير من مجتمعاتنا شريعة المتعة ! إن الطلاق يتم بعد معركة يكتنفها الغدر ، والإعراض والجحود ، وتحترق فيها المشاعر النبيلة ، وليس هذا دينا ، فقد يكون أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، وإذا وقع لأمر ما وجب كسر حدته بعطية حسنة ، تطفئ الغضب وتمنع اللجاجة فى الخصام « وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون »[3] .

إننى أهيب بالمسلمين أن يراجعوا كتابهم وسنة نبيهم فى تعرف أحكام الأسرة ، وأشرف الأساليب لبقاء البيت المسلم يؤدى رسالته التربوية والاجتماعية ، وأن يدرسوا مايقع فى أرجاء العالم من هذا القبيل ، فليس من المعقول أن تمنع المرأة عندنا من ركوب سيارة ، على حين يعطيها العالم حق اقتياد أمة والسهر على مصالحها .

* * *

استأنف المسلمون بعد الهجرة تلقى القرآن الكريم ، كما كانوا يتلقونه خلال ثلاث عشرة سنة مضت قبلها ، وإن كان الجو قد اختلف ، فقد كان الحديث عن اليهود تاريخا تؤخذ منه العبرة ، أما الآن فالحديث عن اشتباك قائم ، وعراك يمسّ الحاضر والمستقبل . . .

---

(١) ، (٢) البقرة : ٢٣٣ (٣) البقرة : ٢٤٢

وقد كانت الصلوات تقام على نحو فردى منعزل ، أما الآن فالمسجد ينبعث منه الأذان مهيبا بالمؤمنين أن يحضروا ، فالجماعة من شعائر الإسلام ، وقد يجىء المريض محمولا بين اثنين فيقيمانه فى الصفّ ، مايتخلف عن الصلاة إلا منافق كسول أو معذور محصور . . . !

لقد بدأت معالم الدولة تبرز ، وصفة المجتمع الجديد تظهر ، وولّى السلوك الفردىّ ليحل محله الولاء المشترك لدين شرع يضع طابعه على كل شىء ، فالأسرة كلها تذهب إلى المسجد ، الرجال والنساء والأولاد .

وبدأت مطاردة المحرمات فى البيت والشارع على سواء . إعمالا لقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . .

كما بدأت السرايا تتكون لحماية الإيمان فى موطنه الجديد ، وقمع من تحدثه نفسه بالعدوان !

والقرآن كتاب متشابه المعانى والأهداف ، يشرح بعضه بعضا ، ويؤكد بعضه بعضا .

ومعروف أن التوحيد بدأ غرسه فى مكة ، وقد حوى القرآن المكى من الآيات ما أخمد أنفاس الشرك ، وجعله شبهات داحضة .

فإذا تكرر الكلام فى العصر المدنى فلمزيد من الإيضاح والتفصيل والتدليل . تلحظ ذلك وأنت تتلو قوله تعالى : « وإلـهكم إلـه واحد ، لا إلـه إلا هو الرحمن الرحيم »[1] فإن الآية التى تلتها مباشرة حفلت بدلائل الوحدانية منتزعة من فجاج الأرض وآفاق السماء « إن فى خلق السموات والأرض . واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس . . . إلخ »[2] .

والآيات التى تلتها تشرح توحيد العاطفة والسلوك ، فالمؤمن يحب ربه ، وهو أشد حبا لله من غيره ، وثمرات هذا الحب الغالب تظهر فى عمله ووجهته .

والله سبحانه أهل لهذا الحب ، لأن المجد كله والعظمة كلها له وحده ، وهنا نسوق أعظم آى القرآن الكريم ، آية الكرسىّ « الله لا إلـه إلا هو الحىّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، له مافى السموات ومافى الأرض . . . إلخ »[3] .

وقد يحتاج الإيمان إلى جدال الطواغيت وكبتهم . لا بأس « ألم تر إلى الذى حاجّ إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك . . . »[4] ؟ إن إبراهيم الذى آتاه الله رشده أخرس الفرعون الصغير ، فبهت الذى كفر . .

---

(١) البقرة : ١٦٣ (٢) البقرة : ١٦٤

(٣) البقرة : ٢٥٥ (٤) البقرة : ٢٥٨

وهكذا ترى فى سورة البقرة وهى أول مانزل بالمدينة المنورة لونا آخر من العرض القرآنى لأهم قضايا العقيدة ، والهدف واحد فى العهدين وإن تلوّنتْ الأساليب « ذلك الكتاب لاريب فيه » إن كانت هناك كتب اكتنفها الريب وساءت فيها الظنون . . . !

ونجح أصحاب محمد فى الاستجابة لما نزل إليهم فى هذه السورة وفيما تبعها ، كان القرآن ينزل وهم يعملون ، ويأمر وهم يطيعون . ويخطط للفرد والمجتمع والدولة وهم ينفذون .

فأمست المدينة برجالها الجدد ونظامها الجديد عاصمة فذة لأخطر الرسالات . وقاعدة لحركات الأمة الوسط التى هى خير أمة أخرجت للناس .

الله يعلِّم رسوله بالوحى ، والمسلمون يتعلمون من رسولهم ماينفعهم وينفع الناس « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا »(١) .

وقد بين الله سبحانه وتعالى فى الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة أن النبى ومن معه صدقوا الله فصد- .م الله ، وأن مانزل إليهم من أحكام فى هذه السورة ـ وماتلاها ـ قد صدعوا به وأحسنوا القيام علي .وبذلوا جهدهم فى أدائه على خير وجه .

وكانوا أشرف منزلة من أقوام سبقوهم جاءهم الوحى فقالوا سمعنا وعصينا . .

لقد كان العرب أميين ولم يكن لهم فى موازين الحضارة العالمية ثقل معروف ، حتى نزل بينهم القرآن ، فأخذ يزكى سيرتهم ، ويرفع مستواهم ، ومازالوا يصعدون فى مدارج الترقى حتى سبقوا غيرهم من الأمم ، وصاروا فى صلاح المجتمع وزكاة النفوس وإقامة العدالة أقدر من غيرهم وأشرف . .

والحضارة التى أقاموها لا تقوم على نعرة جنسية ، أو نزعة مادية ، أو غايات أرضية ، بل على الربانية الخالصة ، وجعل الدنيا مهادًا للآخرة ، ولهذا قال الله سبحانه فى نهاية هذه السورة : «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير »(٢) .

ليس لأهل الإسلام عنصر يتعصبون له ، أو وطن ينتمون إليه ، إن ولاءهم لله رب السموات والأرضين ، وخالق الناس أجمعين ، لافضل لأحد على آخر إلا بالتقوى ، ولافضل لهم على الناس إلا بما يقدمون لهم من دين . .

وإذا كانت المدينة المنورة قد شهدت البناء الأول للأمة الإسلامية فقد كان ذلك بما عرفته من وحى وصلها بالله ، وربطها بهداه ، فكان البيت المسلم والسوق المسلمة ، والنشاط العام فى

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) البقرة : ٢٨٥

دواوين الحكم ومدارس العلم ، وعرصات الاتجار والزرع ، وشئون الأخلاق والتشريع ، كان ذلك كله يسير وفق الوحى النازل فى الكتاب ، والقيادة الهادية من صاحب الرسالة الخاتمة . .

وصح أن النبى صلى الله عليه وسلم قدّم شابا ـ هو أحدث من معه سنا ـ فولاّه القيادة ، لأنه كان يحفظ سورة البقرة !! إنه لايحفظها أحرفا وأنغاما ، وإنما يحفظها إلهامًا وأحكاما ، ونورا وفرقانا ، وهكذا تبنى الأمم . . .

* * *

ونقف أخيرا أمام آخر آية فى سورة البقرة ، فنلفت الأنظار إلى خاصة فى الأمم التى تواتيها حظوظ الرفعة والصدارة ، إنها تمتاز بالصلف ، وتنظر إلى سواها من أعلى . .

والجنس الأبيض الذى يحكم العالم اليوم تستبد به نزعة من الكبر والترفع على سائر الأجناس الأخرى . !!

أليس صاحب الحضارة التى غزت الفضاء وفجرت الذرة ؟ إن أشباه الرجال فيه يتعالوْن تحت هذه المنقبة التى حققها نفر من العباقرة .

أما المسلمون ـ إبان صدارتهم ، وأيام اختصاصهم بالوحى الأعلى ـ فهم يشعرون بالخضوع لله ، والفقر فى ساحته ، والحاجة الماسّة إليه .

ودينهم الاستغفار ، وطلب العفو ، والتأميل فى الفضل الأعلى . .

« ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا . » إلخ [١]

---

(١) البقرة : ٢٨٦



سورة آل عمران

يستطيع قارئ سورة آل عمران ؛ أن يستبين على عجل موضوع السورة الكريمة ، فهى تدور على قضيتين كبيرتين .

الأولى : حوار مع أهل الكتاب الذين يخاصمون الإسلام داخل المدينة .

والأخرى : تعليق على هزيمة أُحد التى أصابت المسلمين بجرح غائر ، وأدخلت الأحزان إلى عشرات البيوت . . .

والحديث فى كلتا القضيتين يأخذ بدايته منفردا فى أول السورة ووسطها ، ثم يختلط الحوار والتعليق أواخر السورة ، كأن جهاد الدعوة يقضى بالثبات فى الموقفين ، ويوجب على المسلمين مواجهة مشتركة لكيد اليهود داخل المدينة وهجوم الوثنيين عليها تمشيا مع عدوانهم السابق . .

إننا نعرض دعوتنا على الأحزاب كلها ؛ عرضا لا جور فيه ولا عدوان ، فمن استجاب آخيناه ، ومن أعرض تركناه ، ومن اعتدى تصدينا له معتمدين على الله .

وتلمح هذا الموقف فى قول الله هنا «فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد[1] » .

تبدأ السورة ببيان أن الإسلام هداية عامة وأن كتابه مصدق لما أنزل الله من قبل ؛ وأن الوحى الإلهى كله فرقانٌ بين الحق والباطل ، وأن موسى وعيسى ومحمد يسيرون فى خط واحد ؛ وأن دائرة الإسلام تشمل الأديان كلها على اختلاف الزمان والمكان .

وقد سمى الله التوراة والإنجيل والقرآن « آيات الله » . .

وننبه إلى أن هذه الكلمة « آيات الله » تكررت عشر مرات فى هذه السورة ، بدأت بقوله تعالى : «إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام[2] » وانتهت بقوله تعالى :

---

(١) آل عمران : ٢٠ (٢) آل عمران : ٤

«وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم ، وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا . . » (١) .

ولا تناقض بين عناصر الإيمان ، ولا بين ما نزل على محمد وما نزل على أخويه السابقين موسى وعيسى .

إن التناقض يقع بين وحى الله وأكاذيب البشر .

والإيمان ـ كما يوضحه القرآن ـ : إيمان بما أُنزل إلينا ، وبما أنزل من قبلنا . . وعلى المخالفين أن يثوبوا إلى رشدهم . .

وأهل الكتاب صنفان : اليهود والنصارى ، ولم يقع حوار ساخن بين المسلمين والنصارى داخل المدينة ، وإنما حمى الخصام بين المسلمين واليهود الذين كونوا مستوطنات لهم فى المدينة نفسها ، وشمالى الحجاز ، والذين تصدَّوْا للإسلام يكذبون الله ورسوله ويهاجمون وحيه ، ويؤلبون عليه عبدة الأصنام فى شتى الأرجاء . .

وقد أغراهم بالهجوم أنهم جمعوا مالا وعتادا ، وقامت لهم ثروات وحصون ، وذاك سر تكرار التنديد بمصادر قوتهم خلال هذه السورة الكريمة : «إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك هم وقود النار » (٢) .

«إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ؛ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم » (٣) .

«إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٤) .

وأخيرا قوله تعالى : « لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » (٥).

والواقع أن الغنى المفرط ونسيان الله قد يطيشان بالأفراد والجماعات . .

واليهود فى مستعمراتهم الأولى بالحجاز بلغوا شأوا من الرقى العمرانى والاقتصادى لم يبلغه عرب الجزيرة الأصلاء ! فهل سخّروا شيئا من هذا فى دعم الحق والشرف ومحاربة الفسوق والعصيان ؟ كلا ، ربما كان المجتمع الجاهلى الوثنى أرقى منهم خلقا ، وخيرا مسلكا . .

(١) آل عمران : ١٩٩ — (٢) آل عمران : ١٠ — (٣) آل عمران : ٢١

(٤) آل عمران : ١١٦ — (٥) آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧

ولذلك كان النبى الخاتم نعم المؤدب لهم عندما اشتبكوا معه مغرورين ، فارتدوا على أعقابهم مدحورين ، وانكسرت قواهم ؛ وطاحت أموالهم . . .

لقد، استأثر اليهود بالوحى الإلهى أجيالا متعاقبة ، فظل فى جنسهم أحقابا حتى زعموا أنهم أصحابه ؛ وأنه يستحيل أن يتجاوزهم إلى غيرهم ! .

ولم هذه الاستحالة ؟ كل امرئ يفقد أهليته لمنصبٍ مًّا ؛ يجب إبعاده عنه ! !

وقد صار اليهود آخر تاريخهم عاجزين تمام العجز عن الارتفاع إلى مستوى الوحى ، فقلوبهم حجارة وأخلاقهم نذالة ، وأثرتهم طافحة ، وتخصصهم الأول والأخير التشبع من الدنيا والعكوف على مطالبها ، والجراءة على الله ، وكراهية أمره ورفض حكمه .

فما بد من صرف الوحى إلى جنس آخر ، قد يكون خيرا منهم حالا ومآلا ، وهذا سر قوله تعالى: «قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير »[١] .

وهذه الآية سبقتها آيات كانت مقدمات لهذه النتيجة أو «حيثيات » لهذا الحكم ، منها قوله تعالى ـ قبل هذه الآية مباشرة ـ : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات »[٢] .

إنهم أمِنوا العقاب الرادع فرفعوا راية العصيان السافر !! وقرَّروا إهدار الشريعة وأحكامها . . .

وكان الرد الإلهى تقرير العدالة العامة بين صنوف البشر ، وأن مزاعم الأجناس لا وزن لها «فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »[٣] والتعبير بكل نفس ، يفيد أن الإضافات المفتعلة للأفراد لا قيمة لها ، فالنفس الإنسانية المجردة تلقى جزاء ما قدمت ، وسوف يحشر الناس عراة كما خلقوا ، لا تكسوهم إلا ألبسة التقوى وحدها إن كانوا أهل تقوى !

والكلام وإن كان تقريعا لليهود ففيه إيماءة خفية إلى غيرهم من الأمم ، فإن الله لن يعاقب أبناء إسرائيل إذا فسدوا ويترك أبناء إسماعيل إذا قلدوهم فى سيرتهم ، واقتفوا آثارهم ، إن تشابه البيئات يقتضى تشابه العقوبات . . .

---

(١) آل عمران : ٢٦ (٢) آل عمران : ٢٣ ، ٢٤ (٣) آل عمران : ٢٥

وقد ظن اليهود أنهم لم يشرفوا بالتوراة ، ولعلهم يحسبون التوراة شرفت بجنسهم فغالوا بأنفسهم على نحو دمرهم تدميرا .

ويوجد الآن عرب يرفضون أن يشرفوا بالإسلام ، فتراهم يجردون العروبة منه ، أتظن عقباهم خيرا من بنى إسرائيل الذين مسخوا قردة وخنازير ؟ إن سنن الله لا تتخلف ، والناس لديه سواسية . .

استغرق الحوار مع أهل الكتاب بضع عشرة صفحة ، اتجه إلى اليهود أولا لأن المسلمين صَلُوا بنارهم ، ولم أر فى الصفحة الأولى إلا إشارة خفيفة إلى النصارى تلمّح عن بعد إلى ميلاد عيسى بن مريم ، «هو الذين يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم »[1] فالآية وإن تحدثت عن عمل القدرة العليا فى تخلّق الإنسان ، وملامحه المادية والأدبية ، تشير إلى أن عيسى بن مريم واحد من ألوف الذين أبدعهم الخالق من عدم ، وأفاض عليهم من الصفات المتفاوتة ما يثير العجب ، بعضهم يعجز عن فهم ما يسمع ويرى ، وبعضهم يخترق الحجب على نحو ما قيل :

والألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا .

هناك من لا يحسن ركوب دابة ، وهناك من يغزو الفضاء !

هناك من يحتبس داخل هواه ، وهناك من يفنى فى الله !

وعيس وإن ولد من غير أب إلا أنه مندرج فى سياق قانون القدرة ، وأرى أن نؤخر الكلام عنه حتى نفرغ من اليهود أولا وموقفهم المريب من الإسلام . .

* * *

كراهية اليهود للعرب قديمة ، سببها الأول أن تحوُّل النبوة عنهم بدأ بمحمد ، وقد كانت لهم دالّة على البشر ببقاء الرسالات السماوية فيهم ، فلما رأوا الوحى ينزل بين العرب جن جنونهم ، وكرهوا الأرض والسماء !!

وقد اتجه إليهم الخطاب الإلهى منددا بهذا الموقف « يا أهل الكتاب ، لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . يا أهل الكتاب ، لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون »[2]؟ .

وظاهر من هذا التوبيخ أن اليهود كانوا يعرفون يقينا أن محمدا حق ، وأنه يتحدث باسم الله ،

---

(١) آل عمران : ٦

(٢) آل عمران : ٧٠ ، ٧١

وأن الله عاقبهم على معاصيهم التاريخية المتوارثة ، ولكنهم بدلا من أن يصطلحوا مع الله ، مضوا فى طريق المشاكسة والتحدى ينكرون النبوة الخاتمة ويحادّونها بالكلام والسلاح ، ويحيكون المؤامرات بين عبدة الأوثان حتى يصرفوهم عن الإيمان الصحيح .

ولذلك تكرر فى أكثر من موضع لوْم اليهود على هذا الموقف الردىء «كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق ، وجاءهم البينات . . . . » [1]؟ .

ثم يجرى الله على لسان رسوله هذا التساؤل : «قل : يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل : يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون » [2]؟ .

ويتفتق الفكر اليهودى عن حيلة خبيثة ليردوا الناس عن الإسلام ويصدوا عن سبيل الله ، يقولون : إن الناس قد يتهموننا بالتعصب لما لدينا ، ويظنوننا كرهنا الإسلام لذلك ، فلنتظاهر باعتناق الإسلام ، ولنوهم الناس أننا أحرار الفكر ولذلك تركنا ديننا إلى غيره!

فلما وجدنا هذا الغير لا يصلح تركناه لعلة فيه لا لعلة فينا !!

« وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النار واكفروا آخره لعلهم يرجعون» [3].

وأظهروا إصرارهم على كره الوحى الجديد ، وانتقال الرسالة بعيدا عن العبريين ، فقالوا : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم . . » [4]فلا يجوز أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، ولا أن يشابهكم فى تلقِّى الوحى .

وظاهر أن القوم كارهون لما صنع الله ، وضائقون بمشيئته فى إيثار العرب ، واختصاصهم بالوحى الجديد ، وهم يحاولون إرغامه ـ سبحانه وتعالى ـ على تغيير أقداره ، والعودة إليهم هم ! وكان الجواب الحاسم « إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » [5].

لقد التقت فى بنى إسرائيل رذائل الصلف والقسوة والغرور ، وهى رذائل قد يخفيها الضعف فتكون حقدا دفينا ، وقد يبديها الثراء والغلب فتكون عدوانا مبينا ، وقد دفعهم هذا وذاك إلى

---

(٢) آل عمران : ٨٦ — (٢) آل عمران : ٩٨ ، ٩٩ — (٣) آل عمران : ٧٢

(٤) آل عمران : ٧٣ — (٥) آل عمران : ٧٣ ، ٧٤

التقوقع فى حاراتهم بعواصم الشرق والغرب ، وإكنان الشر للناس مع الاستعلاء والاستخذاء جميعا . . !!

ونقرأ فى سورة آل عمران علة ما يفعلون « . . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (١).

والأميون جمع منسوب إلى الأمة أو إلى الأم ، فإن كان إلى الأم ، بمعنى العجز عن القراءة ، فالمقصود العرب لشيوع الأمية فيهم ، وإن كان منسوبا إلى الأمم فالمراد الناس كلهم ، وهذا الشرح أدنى إلى خلائق اليهود ومزاعمهم التى يتدارسونها فى توراتهم وتلمودهم ، والتى جعلت دول أوروبا كلها تتنكر قديما لهم ، وتنزل نكالها بهم ، وكان هتلر آخر هذه السلسلة من الحكام الباطشين ، ولن يكون آخر من يؤدبون المجرمين !

وقد شرح القرآن الكريم أن العلاقة بين الناس وربهم لا تقوم على الدعوى الكذوب ، بل على الخلق العالى ، على الوفاء والتقى « بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » (٢).

وقد تساءلت : إذا كان النصف الأول من سورة آل عمران يقوم على الحوار مع أهل الكتاب وقصص أحوالهم فلماذا جاء ذكر الحج هنا ؟ ولماذا جاء الحديث قبله عن الأطعمة المحرمة والمحللة؟؟ .

وبعد إعمال الذهن وإدامة التدبُّر لم أعد بطائل ، فقلت : أستفتنى صاحب المنار وأتعرف على رأى الأستاذ الإمام ، فوجدت الجواب السائغ !

قالوا : كأن اليهود ـ والإسلام يُعرض عليهم ـ يتساءلون : كيف نتبع دينا يستبيح الأطعمة المحرمة علينا ونحن نبتعد عنها فلا تُرى قط على موائدنا ؟ .

وأجيبوا بأن الحظر الذى يحترمونه كان موقوتا وطارئا ، لقد كانت الأطعمة كلها حِلاًّ لهم ، فلما فسقوا واستمرؤوا العدوان حرمت عليهم عقابا من الله . . .

وقد فصل الله ذلك فى سورة الأنعام وختم التحريم بقوله : « . . ذلك جزيناهم ببغيهم ، وإنا لصادقون . فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يُرَدّ بأسه عن القوم المجرمين » (٣).

والمعروف أن رسالة عيسى بدأت بالتخفيف من آصار اليهود ، وورد ذلك فى قوله تعالى على لسان المسيح « ومصدقا لما بين يدىّ من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » (٤).

---

(١) آل عمران : ٧٥

(٢) آل عمران : ٧٦

(٣) الأنعام : ١٤٦ ، ١٤٧

(٤) آل عمران : ٥٠

فلما نزل القرآن الكريم عاد بالتشريع إلى أصله ، فلم تحرم إلا أنواع الميتة ، ولحوم الخنازير ، والدماء المسفوحة ، وما أُهِلّ لغير الله به ، أما ما وراء ذلك فحلال .

وفى هذا يقول تعالى : « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . . » الخ [1].

وكذلك الكلام فى شأن القبلة ، فإن البيت الحرام فى مكة المكرمة هو القبلة الأولى والأخيرة للناس كافة «إن أول بيت وضع للناس ، للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » [2]. وإذا كان بيت المقدس لظروف عارضة قد صار قبلة ، فقد زالت العوارض ورجعت المياه إلى مجاريها ، واستؤنف التكريم للبيت الذى أسِّس حصنا للتوحيد ، وكان موضع التقدير من جملة الأنبياء السابقين . . .

وندع الفروق بين شتى الشرائع لنقرر أن التربية الصحيحة على مهاد من العقيدة المكينة هى أساس الارتقاء البشرى على اختلاف العصور ، وقد ذكرت سورة آل عمران ذلك فى أولها ، قال تعالى : « زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » [3].

إن هذه الغرائز لابد منها لقيام الحياة ، فلو لم تكن الغريز الجنسية مثلا ما اتصلت قوافل الأحياء عل ظهر الأرض ، وكذلك سائر الغرائز الأخرى ، والمهم ألا تتجاوز طور الاعتدال ، وألا تضل سواء السبيل .

والإسلام أباح ما يفيد وحرم ما يضر ، وبنى قواعد الحلال والحرام على الإيمان والعمل الصالح ، وشرع من عناصر التقوى ما يستبقى العلاقة قوية بالله واليوم الآخر !

وقد استمعت إلى خطاب زعيم كبير يحذّر من مرض « الإيدز » فرأيته يوصى باستعمال وقاء معيَّن عند المباشرة الحرام ، إنه يائس من العفة فلا يوصى بها لاستحالتها فى منطقه ، وهى مستحيلة مع فقدان اليقين بالحى القيوم .

وسوف يبقى أتباع الأديان الشكلية يلقون العنت من غرائزهم التى فقدوا السيطرة عليها ، حتى يفهموا قول الله تعالى : « قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد . الذين يقولون :

---

(١) آل عمران : ٩٣ (٢) آل عمران : ٩٦ (٣) آل عمران : ١٤

ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » [١].

لقد تصدرت هذه الآية فى أوائل السورة ، لتقول لأهل الكتاب : إن النجاة عقيدة أساسها «الله لا إله إلا هو الحى القيوم » [٢] ثم تربية تقر الطبائع البشرية فى حدود الطهر ، وتكره الإفراط والتفريط . . وتجعل البصر بالحياة الدنيا بصيرة تهدى للحياة الآخرة ، وتمضى على الصراط المستقيم .

* * *

لم يتصل بمريم أحد من البشر عندما وضعت وليدها عيسى ، ولما كان بعض الناس يقولون : إن عيسى ابن الله فإن هذه القالة تدفع إلى وهْم لا أصل له ، هو أن بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ وبين مريم صلة خاصة ، كان عيسى ثمرتها ، وهذه جهالة غليظة بمكانة الألوهية ، وما ينبغى لها من تقديس . .

ويستحيل أن يكون الله والدا وفق هذا التصور الهابط ، ولذلك قال : « لو أراد الله أن يتخذ ولدا لا صطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار » [٣].

نعم كان ميلاد عيسى خارقا للعادة ! شاء الله ـ وقد جعله كذلك ـ أن يجعله لونا من الخوارق الكثيرة التى يوقعها بين العباد ليعلمهم أنه يحكم قانون السببية ، ولا يحكمه قانون السببية ، ولذلك حكى قصة مريم وابنها ، بعد قصة زكريا وزوجته ، فهى ـ أيضا ـ لون من خوارق العادات ، ولا دلالة لوقائعها على شىء فوق ذلك !

كانت مريم مولودا غير متوقع لأمها التى نذرت ما فى بطنها سادنا للمسجد الأقصى ، يحرس شعائره ، ويقيم فى ساحته عبادة الله ، ويقود جموع المؤمنين «رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » [٤] لكنها فوجئت بأن الوليد المرجوّ جاء أنثى ! وما تصنع أنثى فى تحقيق آمال أمها ، وأداء وظيفة لا يختار لها إلا الكملة من الرجال ؟ .

ليس المولود الذكر الذى أملت فيه كهذه الأنثى التى يغلب أن تحتاج إلى الحماية !

ولم تكن الأم المُفاجَأة تدرى أن ابنتها ستضع إنسانا وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين! وأنها

---

(١) آل عمران : ١٥ ، ١٦ ، ١٧

(٢) آل عمران : ٢

(٣) الزمر : ٤

(٤) آل عمران : ٣٥

ستتولى ـ فى مهده ـ حمايته ، كما حمت أم موسى موسى ، وكما حمت والدة محمد محمدا !!

إن من الغرائب المثيرة أن يكون ثلاثة من أولى العزم قد كفلتهم نساء ضعيفات ، وأن يرعى كبار الأنبياء فى طفولتهم نساء مجردات من القوى المادية ، معتمدات على رب السماء . . .

إن من النساء من تبلغ القمة بنبلها وإيثارها وإيمانها ، ولكن الأمر كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا القليل » .

لقد ناجت امرأة عمران ربها قائلة : « ربِّ إنى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا » (١) .

وتولى زكريا كفالة مريم ، وكان رجلا قد كبرت سنه ، ووهن عظمه ، ولديه امرأته العاقر ، التى لم ترزق من قبل بولد ، وكان زكريا محزونا لأنه لم يرزق من يرث عنه قيادة بنى إسرائيل ، مع سوء ظنه بهم ، وخشيته على الشعب بعد وفاته .

بيد أنه تحامل وصبر ، وشرع يرعى الابنة التى انضافت إلى أسرته !!

وأحس زكريا أن جديدا يقع فى بيته ، وأن أرزاقا تهبط من الغيوب على هذه الابنة الغريبة التى كفلها «قال : يا مريم ، أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» (٢) .

وكانت هذه الإجابة مُشْعِلة لكوامن العبودية فى قلب زكريا ، فناجى ربه ، إنك خرقت العادات لهذه البُنيَّة ، ورزقتها من السماء بقدرتك التى لا يعجزها شىء ، فلا تحرمنى أنا فضلك الأعلى . . !

إنك تستطيع أن تجعل الزوجة العقيم خصبة ، وأن تجعل الزوج العاجز قادرا ، وأن ترزقنا ابنا تقَرُّ به عيوننا « هنالك دعا زكريا ربه ، قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة ، إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله . . . » (٣) .

لقد عادت الحياة إلى الزوجين اليائسين : المرأة العاقر أنجبت ـ وما كانت لتلد ـ والزوج العقيم الكهل عاودته القدرة فأحبل امرأته .

---

(١) آل عمران : ٣٦ ، ٣٧ — (٢) آل عمران : ٣٧ — (٣) آل عمران : ٣٨ ، ٣٩

إن الله إذا أراد كانت الأسباب طوع أمره ، وهو يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء .

فى هذه البيئة القانتة المسارعة فى الخيرات نمت وترعرعت مريم ، إنها بيئة تحيا فى رعاية السماء أكثر مما تحيا وفق قوانين الأرض ، فلا غرابة إذا جاءت الملائكة مريم بعد نضجها تخاطبها بما لا يخطر لها ببال . .

«إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ قال كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون »[1] .

وهكذا دخلت مريم فى تجربة هائلة ، وكُلِّفت بها تَوْجَل منه كل بكر ، وما تمنت معه الموت ، ولكن كلمة الله تمت ، وولد عيسى بن مريم على هذا النحو المثير !

وبعث رسولا إلى بنى إسرائيل كى يقيم عوجهم ، ويكسر غرورهم ، ويلزمهم العبادة المتواضعة ، ورقة القلب مع الله ومع الناس . .

إن الناس كانوا يحترمون بيت النبوة الذى نبتت فيه مريم ، ويقدرون ما عرف به ابنها من نبل وفضل ، وما اقترن بسيرته من نعمة ورحمة ! أما بنو إسرائيل فقد كان لهم موقف آخر . . .

جحدوا الخوارق التى أجراها بين أيديهم ، ورفضوا الاعتراف برسالته ، وضموا إلى كفرهم أمرا آخر من أشنع المناكر ، فزعموا أن ميلاد عيسى لم يكن معجزة سماوية ، بل هو جريمة بشرية ارتكبها مع مريم خطيب لها يدعى يوسف النجار ! وبذلك جمعوا بين الكفران والبهتان . . .

واستنجد عيسى بأهل الخير والصدق فنَجَدَه الحواريون والتفُّوا حوله يقولون : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين »[2] .

ومضى اليهود فى غوايتهم وسعايتهم ، يغرون بعيسى وأتباعه ، وكان عيسى قد بلَّغ دعوته وأدّى رسالته فتوفاه الله ، وأراحه من مكر اليهود ، ورفع درجته فى عليين!

ومع أن كثيرا من الناس يرون أن عيسى قد رفع حيا إلا أنى أميل إلى رأى الفقهاء الظاهرين فى أنه مات كغيره من الناس الذين تدركهم منيتهم ، وإن كان موته الطبيعى لا يمنع أن يعود مرة

---

(١) آل عمران : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ (٢) آل عمران : ٥٣

أخرى إلى دنيا الناس ـ كما يقول ابن حزم ـ لينضم إلى المسلمين فى تقرير وحدانية الله ، ويدعم صفوفهم وهم يقاتلون أعداء الله .

مثله فى ذلك مثل صاحب القرية الذى قال : « أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه » (١) .

أو مثل أصحاب الكهف الذين رقدوا قرونا ثم عادوا إلى الحياة!!

والخطب سهل ، والخلاف قريب ، المهم الاعتقاد بأن عيسى عبد الله ورسوله ، وليس إلّها ولا ابن إلّه . .

بيد أن سورة آل عمران حكت لنا قصة وفد كنسىٍّ قدم المدينة يجادل الرسول فى العقيدة التى قررها ، ويقول له : إذا كان بشرا فمن أبوه ؟ إن الله هو أبوه ، وإنه ليس بشرا إلا فى الصورة وحسب!!

وجادلهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن فقدان الأب البشرى لا يعنى بنوته لله .

ولو كان الأمر كذلك لكان آدم أولى بالألوهية ، فهو لا أب له ولا أم

«إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين » (٢) ولكنهم أصروا على رأيهم ، وقاوموه بحماس ! فماذا يصنع لهم ؟ اقترح عليهم أن يجتمعوا مع أهل الإسلام فى صعيد واحد ، وأن يستنزلوا لعنة الله على أكذب الفريقين «فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل : تعالوا ندْع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إلّه إلا الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم » (٣) .

وقد رفض القوم هذه المباهلة ، وبقى كلا الفريقين إلى يوم الناس هذا على دينه ، ويبدو أن عيسى وحده عندما ينزل آخر الزمان سوف يحسم الموقف ، ويبين لعابديه أنهم مخطئون ، وأن الملكوت كله ليس له إلا سيد واحد هو الله الواحد القهار.

* * *

(١) البقرة : ٩ (٢) آل عمران : ٥٩ ، ٦٠

(٣) آل عمران ٦١ ، ٦٢

قبل أن يبلغ الحديث عن أهل الكتاب نهايته ، شرعت السورة فى الكلام عن معركة أحد ، وهى معركة انهزم فيها المسلمون هزيمة موجعة ، وأصابتهم فيها خسائر فادحة . . !

والمعركة مع عبدة الأوثان الذين سبقوا أهل الكتاب فى مخاصمة الإسلام ، ومطاردة أتباعه، وقد لاحظنا أن المسلمين قلَّما قابلوا أعداءهم فى جبهة واحدة !

كانوا على امتداد تاريخهم حتى هذا اليوم يقاتلون فى جبهتين !!

ويبدأ الكلام عند قوله تعالى لنبيه : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم » [(1)] إلا أن السياق ينقطع فجأة ويبدأ حديث عن تحريم الربا ، وعن الإنفاق فى السراء والضراء ، وعن الإسراع إلى التوبة بعد مقارفة ذنب ما .

ثم يتصل الكلام بعد ذلك تعليقا مسهبا عن نتائج المعركة ، يمتد حتى آخر السورة! .

ونتساءل : ما السر فى هذا الاعتراض ؟ والذى يبدو أن الهدف إصلاح الجبهة الداخلية وتطهيرها من كل انحراف حتى تكون أهلا للنصر ، فالمعارك الدينية ليست انتصارا لأشخاص قدر ما هى انتصار لمبادئ طاهرة ، ومسالك قويمة . .

وتبتعد قصة الخصومات الشخصية تماما عن جو الحروب الدينية عندما يقول الله لنبيه : «ليس لك من الأمر شىء (!) أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » [(2)].

من يدرى قد يكون خصوم الأمس واليوم أصدقاء المستقبل إذا اصطلحوا مع الله ودخلوا فى دينه؟ إن الحب والبغض لله وحده .

وليست بينكم وبين أحد ثارات خاصة أو عداوات شخصية !

ولهزيمة أحد حكمة واضحة ، فإن نصر بدر فتح الطريق أمام المغامرين وطلاب المصلحة كى ينتموا للدين الجديد ، فظاهر أن المستقبل له ! ألم يقل كبير المنافقين عبد الله بن أبىّ بعد النصر المفاجئ فى بدر : هذا أمر قد توجّه !! ورأى أن ينضم بأتباعه إلى المسلمين ؟ .

لذلك يقول الله تعالى : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب . . » [(3)].

لابد من هزيمة تكشف العدو من الصديق ، وتفرز طلاب المنافع والوجاهات ، وتستبقى أهل الإخلاص الذين يظاهرون نبيهم مع البأساء والضراء ، وينصرون ربهم مهما تقلبت الليالى . .

---

(1) آل عمران : ١٢١ (٢) آل عمران : ١٢٨ (٣) آل عمران : ١٧٩

والناس طائفتان : طائفة متجردة وفية للحق وإن أصابه ما أصابه ، « وطائفة قد أهمتهم أنفسهم » [1]لا يسعون إلا لمآربهم ولا يدورون إلا حول أشخاصهم « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شيء » [2]؟

إنهم غاضبون لأن مقترحاتهم لم يؤخذ بها ، ولأن أشخاصهم لم تكن موضع التقديم والتقدير!! وأمثال هؤلاء لا تنتصر بهم عقيدة !

ولم تجئ هزيمة أحد من سوء التخطيط كما يظن البعض ، بل جاءت من التفريط فى إنفاذ الأوامر الصادرة ، ولو أدى كل جندى دوره المرسوم له ما وقع المكروه ، ولكن البعض نسى واجبه المكلف به لسوء تصرف منه ، أو لطمع طارئ عندما تحقق للمسلمين النصر فى المرحلة الأولى من المعركة ، وبدت أكوام الغنائم . . !!

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . . . » [3]أى تغير الموقف فتغيرت النتيجة . . « ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين»[4].

وعندما استغرب المؤمنون الهزيمة الفادحة ، وبوغتوا بآثارها السيئة ، تساءلوا : كيف وقع هذا؟ ولماذا ؟ فكان التعليق الأعلى « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا؟ قل : هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شيء قدير » [5].

إن هزيمتكم فى أحد نصف هزيمة المشركين فى بدر ! فكفتكم - برغم ما حدث - أرجح ، ومع ذلك فأنتم وحدكم المسئولون عما وقع لكم ، وكان من الممكن أن تتجنبوه بالطاعة المفروضة على كل جندى ، والتجرد المطلوب من كل مؤمن . . !!

ثم بدأ العزاء البليغ عن الأحداث المؤلمة ، بدأ بقوله تعالى : « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » [6].

إن الباطل لا مستقبل له ! وقد قصّ الله عل عباده تواريخ أمم مضت ، هلكت جميعا لأنها تشبثت بالباطل وأصرت عليه . .

(١ ، ٢) آل عمران : ١٥٤ — (٣ ، ٤) آل عمران : ١٥٢

(٥) آل عمران : ١٦٥ — (٦) آل عمران : ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩

وإذا كانت قريش قد انتصرت فى هذه المعركة ، فهو انتصار عابر زائل ، وسوف تتغير هذه النتيجة حتما ، والمستقبل للإيمان وحده .

على أن انتصار المؤمنين يحتاج إلى أمرين : صدق النية وحسن الأداء . ولا يغنى أحد الأمرين عن الآخر .

والمسلمون فقراء إلى معرفة الأمر الثانى وتوكيده ، فإن بعضهم يتخيل أن الصلاح وحده يحقق النتيجة المرجوة ، كأن الملائكة ستنزل لجبر القصور فى إعداد المؤمنين للمعركة أو سوء خوضهم لها ، وهذا بعيد .

ابذل ما لديك كله إيمانا وعملا ، إخلاصا ومهارة ، ثم ارتقب الخير ولو كانت قواك أقلّ ، فقد بذلت ما تملك ، ولن يخذلك الله بعدئذ . . .

وقد راقبت معارك كان فيها الخصمان كالملاكمين المتكافئين ، لاينهزم أحدهما إلا بعد عشر جولات أو أكثر . . وراقبت أخرى ينهزم فيها أحد الخصمين بالضربة القاضية على عجل . . .

وشر المعارك أن يكون المرء معتلا ، إذا لم يقع لقوة عدوه ، وقع لخور فى نفسه !! أو أن يكون سيئ الحظ فتزلّ قدمه ، أو يختلج عرق فى بدنه فيتراجع !!

ومعارك المسلمين على امتداد التاريخ تتعرض لهذه الأنواع ، على أن العلة الدائمة لهزائمهم لا تجىء من كَلَب العدو عليهم قدر ما تجىء من تفرُّق كلمتهم ، واختلال صفوفهم ، فمصائبهم من أنفسهم دائما ، فإذا صحوا من غفوتهم رجعت لهم الدولة .

وهذا ما أكدته السورة هنا « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكمقرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين » (١) .

وقصة الحياة حكاية لهذا الصراع الدائم بين مختلفين فى الرأى والسلوك « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم »(٢)فالشر ابتلاء للخير ، والقبح امتحان للجمال ، واللؤم امتحان للشرف « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ؟ وكان ربك بصيرا » (٣) .

كان ربك قديرا أن يهزم الباطل ويخزى أهله ، فما عمل أهل الحق عندئذ ؟ وما جهادهم الذى يلقون به ربهم ؟ « ولو يشاء الله لا نتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض » (٤) .

---

(١) آل عمران : ١٣٩ ، ١٤٠ — (٢) هود : ١١٨ ، ١١٩

(٣) الفرقان : ٢٠ — (٤) محمد : ٤

ومضت سنة الأنبياء وأتباعهم من صدر التاريخ على هذه الوتيرة ، فما قام لله معبد ولا عمر له مسجد إلا بكفاح المؤمنين وبذلهم ! « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره . . » [١].

وقد ذكّر الله أتباع محمد بهذه الحقيقة التاريخية ، عندما عزّاهم فى مصابهم بأحد فقال : «وكأين من نبىّ قاتل معه ربّيّون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » [٢].

ومضت السورة تداوى الجراح وتنشط العزائم ، وتعيد للمؤمنين تماسكهم وثقتهم ! ولا يجوز أن ننسى هنا أن دور الهزيمة فى معركة أحد كشف عن معادن بالغة النفاسة ، فهناك رجال ركلوا الدنيا بنعالهم ومضوا إلى الله لا يلوون على شىء . . !!

وهناك رجال ثبتوا فى مواقف ميئوس منها لا يحملهم على الثبات إلا الوفاء إلى آخر رمق ، وهناك نساء انطلقن إلى معارك ملؤها البطولة والفداء ، يتقاعس عنها الواهنون ، وتطير إليها أولئك المؤمنات الصامدات . .

وهناك من رزق الشهادة وهو لاغب يحمل أعباء الكفاح برجولة رائعة لا تعنيه إلا نصرة الله ورسوله .

وهناك وهناك ، إنها معركة حُفرت ذكرياتها فى ضمائر المؤمنين فما تنسى أبدا . . وبقى ذكر أحد فى قلب رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى آخر عمره ، فهو يصلى على شهدائه ويقول : أحد جبل يحبنا ونحبه » .

الشهادة منزلة رفيعة من الرضوان الأعلى ، يصطفى الله لها من يشاء من عباده ، ولذلك قال فى هذه السورة : « ويتخذ منكم شهداء . . . . »

والملحوظ أن المختارين لهذه المكانة مؤمنون همهم الأكبر إعلاء كلمة الله ، والإصباح والإمساء فى دعم الإسلام وحماية بيضته وردّ العدوان عنه .

وقتلى أحد نماذج فريدة لهذا الخلق الواثق الواضح ، تدبّر سيرة مصعب بن عمير أنعم فتيان مكة ، الذى اعتنق الإسلام فحُرم ثروتَه وعضّه الفقر بنابه ، فإذا هو يلبس ثوبا من جلد الضأن ، بعد أن كان يخبّ فى الحرير !

---

(١) الحج : ٤٠ (٢) آل عمران : ١٤٦ ، ١٤٧

ثم هاجر قبل المهاجرين مكلَّفا من رسول الله بنشر الإسلام فى المدينة ، فلم يدع بيتا ذا شأن حتى أدخله فيه ، وها هو ذا يقتل فى أحد غريبا ، عليه ثوب لا يكمِّل كفنا لجثمانه الطاهر ، فتغطى قدماه بالإذخر !!

وتدبّر سيرة عبد الله بن حرام ، وكان أبًا لست بنات وغلام واحد ـ هو جابر بن عبد الله ـ فقال لابنه : لا تُتْرِك الفتيات الستّ دون رجل معهن ! .

ولا تطيب نفسى بأن يخرج الرسول للقتال وأنا جالس فى بيتى ! فابق أنت معهن ، وأنا ذاهب للقتال ، وذهب الرجل ليستشهد فى المعركة !

لقد كان وضع المسلمين مكشوفا بالغ الحرج بعد ما ترك الرماة مواقعهم ، ولذلك قتل منهم سبعون بطلا فى دفاع كئيب شاع فيه أن الرسول نفسه قتل . . !

لكن قريشا وجدت أنها تصطدم بحائط من الصلب ، وأنها لن تبلغ أكثر مما بلغت ، فجمعت رجالها وعادت أدراجها إلى مكة . .

ونزل فى مصاير الشهداء قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا » فوصفهم بخمس صفات « (١) بل أحياء (٢) عند ربهم (٣) يرزقون (٤) فرحين بما آتاهم الله من فضله (٥) ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » [١].

إن الله أَعْلَمَ أولئك الشهداء أن إخوانهم وأولادهم على درب الحق ، وأنهم أدَّوْا واجبهم فى نصرة الله ورسوله ، وأنهم ـ عن قريب ـ سوف يلحقون بهم فى دار النعيم .

ومن المفيد أن نذكر ما فعل المسلمون بعد الهزيمة العارضة ، فقد جمعوا فلولهم ، وتحاملوا على جراحهم ، وانطلقوا فى طريق مكة يطاردون جيش الكفر الذى كان يمشى متباطئا يحدث نفسه بعودة لاستكمال ما بدأ ، فلما شعر بالمسلمين قادمين سارع فى العودة من حيث جاء .

وعاد المسلمون كما وصف الوحى « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » [٢].

وينقطع التعليق على غزوة أحد مؤقتًا ، ليتصل الحديث مرة أخرى عن اليهود ، ونلاحظ هنا أن السياق صار مزدوجا إلى آخر السورة ، فهو تارة يتناول اليهود ، وتارة يتناول عبدة الأوثان ، ولا عجب فجهاد الدعوة يتناول الفريقين على سواء كما قال جل شأنه «لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ،

---

(١)آل عمران : ١٦٩ ـ ١٧٠ (٢)آل عمران : ١٧٢

ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » [1] .

ويبلغ اليهود فى كفرهم حدا من الإسفاف يحنق الحليم !

فالقرآن يطالب المؤمنين بالإنفاق فى سبيل الله ، سواء كان هذا الإنفاق دفاعا عن الحقّ أو كان إسعافا للفقراء والمساكين .

وهو يفرض ذلك فى أسلوب عالٍ يغرى بالبذل ، فى أشرف صور البيان «من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنًا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » [2] .

فماذا يقول اليهود عندما يسمعون ذلك ؟ يقولون : إن الله فقير يقترض من العباد !! ويقولون : إنه ينهى عن الربا ويتعامل به !! « لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق»[3] .

والواقع أن هذا تعليق قوم ليس فى أفئدتهم إيمان ولا تقى ، يعيشون بمواريثهم عيشة خسيسة ! ويستقبلون الإيمان الغض بأحقاد بالية وسخائم محقورة . .

ولا يستغرب فى مجتمعهم أن يعبد المال وحده ، وأن تطلب الدنيا وتنسى الآخرة !! وأن يعاملوا غيرهم من البشر وهم صرعى هذا الدنايا . .

اليهود يرون أنفسهم شعب الله المختار ! فهل هذا الاختيار تعليمٌ للأمم وإحسان إليها ، أم هو الاستعلاء عليها ثم استغلالها واستنزافها ؟ .

إن التاريخ اليهودى ليس تاريخ عطاء بقدر ما هو تاريخ صلف وغصب !!

وليس عرب اليوم هم الذين يقولون ذلك ، بل تقوله شعوب أوروبا وأمريكا التى عانت قديما وسوف تعانى مستقبلا . .

وفى هذه السورة تلخيص لسيرة اليهود « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّنُنَّه للناس ، ولا تكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، فبئس ما يشترون . لا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم»[4] .

---

(١) آل عمران : ١٨٦

(٢) البقرة : ٢٤٥

(٣) آل عمران : ١٨١

(٤) آل عمران : ١٨٧ ، ١٨٨

وتنقلنا سورة آل عمران إلى جو آخر بعيد عن الماضى وذكرياته الحلوة والمرة . . .

إننى إنسان أعيش فى هذا العالم ، وأعرف قواه ونواميسه وخيراته ودلالاته ! ألا يقودنى هذا إلى الله والتسبيح بحمده ، والإقرار بمجده .

لأتركْ جانبا الخلاف بين الأديان وأتباعها ، ولأعوِّلْ على عقلى الذى سأحاسب به ! ولأفكرْ فى مصيرى بعد هذه الدنيا ! لماذا أنسى ربى وأبتعد عن صراطه المستقيم ؟ يجب أن أنعطف إليه وألـوذ به !

وها قد ظهر إنسان يصيح بأهل الأرض أن يثوبوا إلى رشدهم ويؤمنوا بربهم . لماذا الصدّ عنه ؟ .

ألا يستحق هذا الداعى المتجرد أن أصيخ إليه ، وأتدبر دعوته « ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » [١].

إن الله يجيب هذا الدعاء بأنه لا يضيع عمل عامل من الإنس أو الجن ، من السود أو البيض ، لا يهمّ العنصر أو النسب ، المهم العمل الصالح .

ماذا يتعاظم الناس عن الإيمان بإنسان يدعو إلى الصلاح على ضوء من الخشوع لله والاستعداد للقائه ؟ ماذا فى دعوته يؤلب القلوب ضده ، أو يحرض الأحزاب على قتاله ؟ .

لكن العميان من عبدة الأصنام والمتعصبين من أهل الكاب تألبوا عليه ، وقاتلوه . . واضطروا أتباعه إلى هجرة وطنهم وتحمل أنواع الأذى فى سبيل معتقدهم ، فليكن جزاؤهم كما وصف الله «فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . . » [٢].

إن الكفار قد تعلو رايتهم ، وتنتصر جيوشهم ، ليكن ، فذلك إلى حين « لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، متاع قليل ، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » [٣] .

وقد غلب المشركون يوما فى أحد ، فماذا كان ؟ توقف سيل الحق قليلا ، ثم مضى تياره من بَعْدُ عاصفا لا يقفه شىء ، والعاقبة للتقوى . . !

وختمت سورة آل عمران بعد هذا العرض المفصل بآيتين ، أولاهما تتحدث عن أهل الكتاب ،

---

(١) آل عمران : ١٩٣ (٢) آل عمران : ١٩٥

(٣) آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧

وما ينبغى منهم بإزاء النبىّ الخاتم « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم » (١).

والآية تتضمن إلى آخر الدهر دعاء إلى أهل الكتاب من يهود ونصارى أن يستمعوا إلى النبى الخاتم ، ويؤمنوا بما جاء به .

أما الآية الأخرى فهى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » (٢) .

هذا توجيه للمسلمين الذين اتبعوا محمدا أن يصبروا على تعاليم الحق الذى شرفهم الله به ، وأن يكونوا أصبر من غيرهم فى هذا المجال ، وأن يكونوا فى رباط دائم حول ثغورهم وأراضيهم حتى لا تُدخل عليهم من أقطارهما كما فعل الاستعمار الأخير!

هذا نداء لنا ، فهل نلبى النداء ؟ .

* * *

(١) آل عمران : ١٩٩ (٢) آل عمران : ٢٠٠

سورة النساء

الثلث الأول من سورة النساء حديث عن الأسرة وقضاياها ، والأسرة هى المجتمع الصغير ، والثلثان الباقيان حديث عن الأمة وشئونها ، والأمة هى المجتمع الكبير ، فمحور السورة كلها العلاقات الاجتماعية وضرورة إحكامها وتسديدها .

وبدأ التنبيه إلى ذلك من مطلع السورة « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . . » (١). إن الناس ـ وإن بدا بعضهم غريبا عن بعض ـ هم أقارب فى الحقيقة ، إن أبا واحدا ينميهم، ورحما مشتركة تصلهم . .

وعلى كل إنسان أن يذكر هذه القرابة فيصل الرحم الماسة ، ويصل الرحم البعيدة ، وصلة الأرحام من شعائر الإسلام ، وإن كان المأنوس بين الناس أن الرحم لا تعنى إلا الأقربين من الوالدين والإخوة ! ويجب أن تكون دائرة الإنسانية أوسع ، وأن يتم التعاون بين أجناسها وألوانها . . .

والآية الأولى تعتمد فى هذا النصح على التخويف من الله الخالق القادر ، وعلى رقابته الشاملة المستوعبة ، غير أننا لاحظنا فى هذه السورة عديدا من آيات التأميل فى الله ونشدان رحمته مثل « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفِّر عنكم سيئاتكم . . » (٢)، « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما » (٣) ، « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» (٤)، «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » (٥)، « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا . . » (٦).

إن الله لا يريد إثقال كواهل العباد بعبادات تشق عليهم ، وما يؤدونه من قربات هو تعب

---

(١) النساء : ١ (٢) النساء : ٣١ (٣) النساء : ١١٠
(٤) النساء : ٤٨ (٥) النساء : ١٧ (٦) النساء: ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

المتعلم فى تحصيل المعرفة ، والمتربى فى إحراز الكمال ، وهو تعب محتمل مثمر . . .

وبين الخوف من الرقيب القادر ، والأمل فى الرحمن الغفور يحيا المؤمنون ، ويستعدون للقاء الحتم ، طال الأجل أو قصر . . !

والقسم الذى يتحدث عن تعاليم الأسرة من هذه السورة ، بدأ بالكلام عن حقوق اليتامى لأن المسلمين أمة جهاد ضد عدو لا تنتهى غاراته ، فلا عجب إذا كثر القتلى وكثر الأيتام .

وفى عصرنا هذا نرى الأيتام غرضا لعصابات التبشير ولصوص العقائد ، ومن هنا وجب أن يهتم المسلمون بيتاماهم ، ويصونوا حقوقهم . .

وفى أثناء الكلام عن اليتامى عرض حديث الزواج !! فأبيح مفردا ومتعددا . . .

والإسلام فى هذا لا يشذ عن سنن الأديان التى سبقت ، فلا يوجد دين حرم التعدد بأمر من الله . .

وعندما أنظر إلى واقع الناس فى عصرنا ، أرى الأوروبين والأمريكيين أسوأ الناس صلة بالنساء، فالتعدد الحرام شائع بينهم ، ويستطيع أى وغد أن يتصل بعشرات النساء . .

والمباح عندنا له دائرته المرسومة ، فإن الإسلام أمر الأعزب بالصيام إذا كان لا يقدر على تكاليف الزواج ، فكيف يبيح لمتزوج بواحدة أن يطلب أخرى لا يستطيع إعاشتها، وإن استطاع لم يستطع العدل معها؟ .

على أن الزواج عندنا لا يتم بالإكراه ، وتستطيع أى كارهة للتعدد أن ترفضه !

ذلك ، ومن خشيت من زوجها التعدد تستطيع فى صلب العقد أن تشترط ألا تكون لها ضرَّة ، وعلى الزوج كما قال أحمد أن يلتزم ، ويوفى بالشرط وإلا طلقت !

وذكرت السورة بعدئذ أحكام المواريث ، فجعلت للمرأة نصيبا فى كل تركة ، وكانت من قبل محرومة ، وندبت إلى إعطاء المساكين والضعاف حظا منها ، وأباحت للرجل أن يوصى بما شاء من ماله ـ فى حدود الثلث ـ كما بينت السنة !!

ومعروف أن الإسلام جعل ـ فى كثير من الصور ـ نصيب الرجل ضعف نصيب المرأة ، وذلك لأن الرجل فى الإسلام مكلف بأعباء أكثر ، فهو دافع المهر ، وهو ملزم بالنفقة على بيته .

ولا تكلف المرأة بالتكسب ما دام لها قريب غنى ، وإلا فبيت المال مسئول عنها . . وذلك حتى لا تتعرض النساء لضياع الأعراض والابتذال كما يقع فى الغرب . . الذى يتشدَّق بأنه نصير المرأة . . !

ولست بهذا الكلام أدافع عن نفر من المسلمين فارغى القلوب والعقول ، يحتقرون الأنوثة،

ويهينون الزوجة والأخت والبنت ويتقربون بحبسها وتجهيلها والاستطالة عليها . . .

وفى السنة عن عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله» وعن ابن عباس قال رسول الله. . !«خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى» .

والمؤسف أن عددا من المتدينين يبنى تقواه على الإغلاظ للمرأة وإساءة عشرتها وانتقاص مكانتها ، حتى كره النساء فى العالم كله الإسلام ، وخافوا من سيطرته على المجتمع مع هذا الفهم الفاسد . .

كانت المرأة قديما مهدرة الشخصية مستباحة الحقوق ، وكانت إذا مات زوجها جاء أقرب الناس إليه ، فوضع يده عليها ، كأنها بعض المتاع الذى يورث . .

وتصرف الجاهليين شبيه بما يفعل اليهود ، إذا مات الزوج ولم ينجب ، وجب على أخيه أن يتزوج أرملته وأن ينجب منها ولدًا ينسبه إلى الأخ الميت !!

ولا أدرى كيف يقع هذا ؟ زواج بالإكراه ! ونسب مفتعل .

وما أحسب ذلك تشريعا سماويا ، إنه من أكاذيب اليهود ، وقد قال تعالى : «يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها . . » [1] . ثم قال : « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » [2].

والمقصود بالعضل إساءة العشرة حتى يتحول البيت إلى سجن تحاول المرأة الخروج منه ولو بردّ المهر الذى أخذته من قبل !! وقد أمر الرجال بالمسلك الأشرف فقال سبحانه : «وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » [3].

ورَفَضَ الإسلام إذا أراد الرجل الفراق أن يساوم امرأته لتتنزل عن المهر الذى أخذتْه مهما كان الذى ساقه كبيرا .

لقد صار مهرها ملكا خاصا بها ولو كان قنطارا .

ومن كره زوجته ورأى التزوج بأخرى فليغرم من جيبه ما يشاء ، ولا يحاول أن يسترد شيئا من زوجته الأولى «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا ، فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا » [4].

ونلحظ أنه ـ قبل الحديث عن حسن العشرة ـ ذكرت جريمتان من الجرائم الاجتماعية السيئة :

(١ ، ٢ ، ٣) النساء : ١٩ (٤) النساء : ٢٠ ، ٢١

الأولى السحاق ، والأخرى اللواط ، ومحاربة الجريمتين حماية حقيقية للأسرة ، وحراسة لجوها الطاهر ، فمن الخطأ حسبان الكلام مقحما على السياق .

فى الأولى يقول الله سبحانه : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » (١).

وفى اللواطيين يقول تعالى : « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما . . . » (٢).

ومن نسيان الغرب لله ولقائه ، وللدين ووصاياه ، أنه استهان بهذه الجرائم ، كما استهان بأشد منها فكان ما نسمع به من فشوّ « الايدز » والأمراض التناسلية الأخرى .

والواقع أن حضارة الغرب منخورة الكيان ، وما تبقى إلا لغياب الوارث الذى يحل محلها ، أعنى غياب المسلمين الذين نسوا دينهم . . !!

ولكى تنجح الأسرة فى أداء رسالتها يجب أن تهذب الطباع ، وتختفى الأثرة ، ويتمرّن كل طرف على الإحسان والتعاون مع الطرف الآخر .

اتصلت بى إحدى الزوجات تشكو رجلها ، وشعرت من لهجتها أنها موجعة حقا ، وأنها تؤثر فراقه لولا ظروف قاهرة !! فأوصيتها بالصبر كما صبرت امرأة فرعون على عتوه ! وقبلت على مضض . .

قلت : عندما تكون لهذا الرجل أخت متزوجة من رجل عادى فعاملته على أنها قيصرة ، أو فرعونة ـ إن صح التعبير ـ فما العمل ؟ الداهية الأكبر أن تكون ذات برود جنسى ، إن جو الأسرة سيكون نكدا . . .

أباح الإسلام العقوبة فى هذه الحال ، وتتدرج من الوعظ إلى المقاطعة إلى الضرب ، واشتراط ألا يكون الضرب مبرحا وأن يتجنب الوجه !

ولم أر فى السنة سببا للعقوبة الأخيرة إلا أن تنشز المرأة وتأبى الإجابة إلى الفراش ، أو تأذن فى البيت لغريب مريب !! وكلا الأمرين خطير كما ترى . .

وقبل هذه التعليمات العائلية تعرضت الآيات لعدم أكل أموال الناس بالباطل ، كما تعرضت لضرورة الرضا بالواقع وعدم التطلع إلى الآخرين .

ثم اتجه الحديث عاما إلى الناس كلهم يقول : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين . . . . » (٣).

---

(١) النساء : ١٥ (٢) النساء : ١٦ (٣) النساء : ٣٦

وهذا توجيه يشمل المجتمع كله ، وإن عنى الأسرة أولا ، ثم اطرد الحديث عن النفقة ، فلا بخل ولا تبذير ، ولكن الأمر الإلّهى كشف فريقين من الناس متناقضين : أولهما البخلاء والآخر المسرفون المراؤون . .

وقد يكون الكلام عن فريق واحد يبخل فى مجال ويأمر غيره بالبخل ، ويسرف فى مجال آخر للرياء والسمعة ، وكان الأولى أن يتصرف فى المال وفق إرادة مَن رزقه ، فيكون مسكله قصدا «وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ، وكان الله بهم عليما » (١).

وبقى الكلام قليلا يعنى الأمة فى حاضرها ومستقبلها ، ثم تحول إلى مجرى آخر مخالف لما سبقه فشرع يشرح أحوال الطوائف التى يتكون منها المجتمع العربى أيام البعثة ، وحقيقة كل فرقة وما يجب بإزائها .

والغريب أن هذه الطوائف هى التى تواجهها أمتنا اليوم ! !

* * *

كان المسلمون شداد الحرص على تألُّف اليهود ، والاعتراف بأنهم أصحاب الوحى الأول ، وكانوا يرتقبون منهم الانحياز إلى جانبهم ، إذا وقع بينهم وبين الوثنية صراع .

بيد أن اليهود كانوا عند أسوأ الظن ، فما بالوا بعهد ولا بجوار ، وقدموا إلى الإسلام كل ما يستطيعون من إساءة . . ! !

وفى التعجيب والاستنكار لما فعلوا يقول الله لنبيه : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ، والله أعلم بأعدائكم . . » (٢).

والتعبير بأن ما لديهم نصيب من الكتاب إشارة إلى أنهم أضاعوا كثيرا من الوحى الذى نزل إليهم ، والواقع أن فقدان كتابهم لتواتر الحَفَظَة سمح بضياع بعضه واضطراب البعض الآخر .

والجزء الذى بقى بين أيديهم لم يحسنوا العمل به ، وهم إلى اليوم من وراء انتشار الربا والزنا فى العالم أجمع .

والتدين الفاسد قد يكون أضرى من فراغ القلب ، وغفلته ، وذاك سر ما ورد من أن النار أسرع إلى فسقة القراء منها إلى عبدة الأوثان . . !

والشر الكامن فى أفئدة اليهود من وراء اشترائهم للضلال واجتذابهم للآثام ، ورغبتهم

---

(١) النساء : ٣٩ .   (٢) النساء : ٤٤ ، ٤٥

الغريبة فى أن يروا المسلمين وقد نسوا القرآن وعادوا إلى عبادة الأوثان .

أىُّ إخلاص للحقيقة فى هذا المسلك المظلم ؟ .

وقد وعد الله المسلمين أن يؤازرهم فى هذه المعركة التى فرضت عليهم وسيكون وليهم وناصرهم! « وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا » [1].

لكن هذه الولاية والنصرة لا ينالها القاعدون ، بل يستحيل أن يظفر بهما من فرّط فى الدفاع عن نفسه ، وتهاون فى رسم الخطط و إحكام الحصون . . !

قال صاحب النار : « إن الله العظيم الحكيم لا يحابى فى سننه المطردة فى نظام خلقه مسلما ولا يهوديا ولا نصرانيا ، لأجْل اسمه ولقبه ، أو لانتسابه بالاسم إلى أصفيائه من خلقه ، بل كانت سننه حاكمة على أولئك الأصفياء أنفسهم ، حتى إن خاتم النبيين صلى الله عليم وسلم قد شُجَّ رأسه ، وكُسِرتْ سِنّه ، ورُدِّىَ فى الحفرة يوم أحد لتقصير عسكره فيما يجب من نظام الحرب . . !!

فإلى متى أيها المسلمون هذا الغرور بالانتماء إلى هذا الدين وأنتم لا تقيمون كتابه ولا تهتدون به ، ولا تعتبرون بما فيه من النذر ؟ .

ألا ترون كيف عادت الكرَّة إلى تلك الأمم عليكم ، بعد ما تركوا الغرور ، واعتصموا بالعلم والعمل ، وبما جرى عليه نظام الاجتماع من الأسباب والسنن ، حتى ملكت دول الأجانب أكثر بلادكم ، وقام اليهود الآن ليجهزوا على الباقى لكم ، ويستردّوا البلاد المقدسة من أيديكم ، ويقيموا فيها ملكهم ؟؟ .

فاهتدوا بكتاب الله الحكيم وبسنته فى الأمم، واتركوا وساوس الدجالين الذين يبثون فيكم نزغات الشرك ، فيصرفونكم عن قواكم العقلية والاجتماعية ، وعن الاهتداء بكلام ربكم إلى الاتكال على الأموات ، والاستمساك بحبل الخرافات .

ويشغلونكم عن دينكم ودنياكم بما لم ينزله الله تعالى عليكم من الأوراد والصلوات ، وما غرضهم بذلك إلا سلْب أموالكم ، وحفظ جاههم الباطل فيكم . . . . .

أفيقوا أفيقوا ، تنبهوا تنبهوا ، واعلموا أن الله لم يظلم ولا يظلم أحد فتيلا ، فما زال ملككم ، ولا ذهب عزكم إلا بترك هداية ربكم واتباع هؤلاء الدجالين منكم !» .

والشيخ صادق ، وإن جَدَّتْ أمراض غير ما ذكر هى أنكى وأقسى !!

---

(١) النساء : ٤٥

ثم شرح القرآن الكريم ما صنع اليهود بدينهم ـ حتى نحذر الوقوع فى مثله ـ فقال : «من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه . . »[1].

وتحريفهم له صور شتى : أولها الميل بالكلام عن معناه الظاهر اتباعا للهوى وكراهية للمعنى القريب .

ولدى القوم بشارات برسول قادم ، وهم يصرفونها عن المقصود بها إلى ما يرغبون حتى لا يصدقوا محمدا ، أو يشهدوا له . .

ومن التحريف الزيادة على النص الوارد لأنها ضميمة غريبة إلى الوحى النازل لا علاقة له بها .

وقد أحصى الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه «إظهار الحق » مائة شاهد على هذا التحريف المتعمد، وقعت فى الكتاب المقدس « ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »[2].

وكتاب إظهار الحق أكمل ما كتب فى هذا الموضوع .

ومن تعنت اليهود وسوء أدبهم قولهم للرسول : « سمعنا وعصينا ، واسم غير مسمع ، وراعنا ـ من الرعونة ـ ليًّا بألسنتهم وطعنا فى الدين »[3].

وقد هددهم الله بأنهم إذا بقوا على عنادهم بطش بهم ، فقال « يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم ، من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا »[4].

وقد ظل اليهود على عنادهم فمحا الله آثارهم من الحجاز ، وطمس وجودهم به . . .

وقد عادوا الآن مرة أخرى بعد ما انفرط عقد المسلمين واستهانوا بمواريثهم ، والمستقبل لأهدى الفريقين وأنشطهما فى نصرة الله ورسوله ، ولعلنا نعود إلى الله فيعيد لنا عزنا القديم !

ثم قال تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »[5].

الشرك نوعان : الأول أن تحسب للعالم خالقين أو رازقين أو مدبرين . . أو أكثر .

والثانى أن تلجأ لغير الله فى التشريع والتحليل والتحريم ، والدعاء والنذر والتوكل . . الخ .

واليهود لم يكونوا مشركين بالمعنى الأول ، وإنما إشراكهم ، وإشراك أشباههم يجىء من

---

(١) النساء : ٤٦ (٢)آل عمران : ٧٨ (٣) النساء : ٤٦

(٤) النساء : ٤٧ (٥) النساء : ٤٩

تـحكيم غير الله والاستمداد منه ، وكلا النوعين جرم لا يغتفر ، لأنه فساد عميق بالنفس الإنسانية .

ومع الحضارة الحديثة ظهر نوع أوغل فى الفساد والإلحاد ، وهو جحد الألوهية أصلا ، وعبادة الهوى ، ونسيان الرب وتعاليمه نسيانا مطلقا . . .

والإسلام فى هذا العصر يقاوم فنونا من الجحود ، والتعطيل ، والتثليث ، والتشبيه ، والحكم بغير ما أنزل الله ، والجراءة على أصول الشريعة وفروعها .

وعلى رجاله أن يقدروا ثِقل هذه التبعات ، وأن يضيئوا دروب الأرض بما فى أيديهم من نور ، ولا يكونوا كاليهود الذين زعموا أنهم شعب الله المختار ، ثم لم ير الناس منهم خيرا يذكر ولا صنيعا يشكر .

حتى قال فيهم «هتلر» : إنهم كالطفيليات تسكن البدن فتسرق غذاءه وتمنع نماءه ، ولا عافية له إلا بالخلاص منها . . .

وبلغ السعار اليهودى الحضيض عندما سئل رؤساء إسرائيل أى الفريقين أولى بالنصر وأدنى إلى الحق ؟ فكان ردهم الوثنية أفضل من الإسلام ، وحماة الجاهلية خير من أصحاب محمد . . ! !

إن الدين عند بنى إسرائيل ليس عدالة ولا سماحة ولا خشية ! إنه كل ما يذكى الصلف الجنسىّ عند القوم ، ويشبع أثرتهم وغرورهم .

وقد كرهوا العرب ولا يزالون ، لأنهم الأمة التى اصطفاها القدر لحمل أمانات الوحى ، بعد ما عبث الإسرائيليون بالوحى ، وناءوا بتكاليفه .

وأولاد يعقوب جزء محدود من آل إبراهيم ، فلماذا يريدون احتكار نعمة الله على إبراهيم وآله فيظفروا بها وحدهم ولا يكون لأولاد إسماعيل نصيب منها ؟ .

ولماذا ينقمون على أبناء عمومتهم ما نالهم من فضل الله ، ويمالئون عُبّاد الأصنام عليهم ؟؟ «أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا . أم لهم نصيب من الملك فإذن لا يؤتون الناس نقيرا » (١).

والآية تشير إلى بخل اليهود المعروف ، فلو أنهم ملكوا خزائن ربك ماتسرَّب منها عطاء لمحتاج ولا فضل على كفء ، وقد حسدوا العرب على ما نالوا من خير ، فما دخلهم فى هذا وما اعتراضهم؟ .

---

(١) النساء : ٥٢ ، ٥٣

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكا عظيما » [1].

واليهود ـ لشدة غضبهم من انتقال الوحى إلى العرب ـ يتوارثون تكذيب محمد ومخاصمة قومه، وقد جاءوا بعد أربعة عشر قرنا إلى فلسطين يبغون استعادة مجدهم القديم ، منتهزين فرصة أن العرب فرطوا فى مواريث الإسلام ، وتخلفوا فى مضمار الحياة ، وغلب عليهم اللهو واللعب . .

وسمع أهل العصر صياحهم وهم يدخلون القدس هاتفين : بالثارات خيبر ! محمد مات وترك بنات !

فهل نخجل من خطايانا ونعود إلى ديننا حتى يقال : محمد عاد ، ومعه آساد؟؟ .

واسترسل السياق يلوم اليهود على شهادتهم للوثنيين ، إن الشهادة أمانة ، وأداؤها إلى أهلها دين ، ولا ذرة من الإنصاف فى تفضيل الوثنية على الإسلام ، لذلك قال تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نِعمّا يعظكم به . . »[2].

وللأمانة معان كثيرة مادية ومعنوية ، تدور كلها على صون حقوق الله وحقوق الناس ، فى سائر الأعمال والأحوال ، ولا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له . . .

* * *

بعد ما قصّ القرآن من أخبار اليهود ، شرع يحكى أخبار طائفة ثانية كان لها خطر كبير على الإسلام وأهله ، هى طائفة المنافقين الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان ، حتى كشفتهم أعمالهم وفضحت سرائرهم . . .

وبدأ الحديث عند قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ؟ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . . »[3].

والتعبير بزعموا إشارة إلى كذب دعواهم ، والطاغوت ما يحتكم إليه دون الله من إنس وجن وجماد . . !

ومقتضى الإيمان الكفر بالطواغيت ، والبعد عما توسوس به ، قال تعالى : « الله ولىّ الذين

---

(١) النساء : ٥٤ (٢) النساء : ٥٨ (٣) النساء : ٦٠

آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات»[١] . وقال فى هذه السورة : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت . . »[٢] .

ووصف الطاغوت مطرد فى كل ما يبعد عن الله ويصد عن سبيله ويخاصم شريعته ، والمنافقون هنا يسمعون نصح المؤمنين لهم باتباع الله ورسوله ، ولكنهم يمضون فى طريقهم ، وكلما خطوا خطوة ملكهم العناد والضلال فإذا هم يقطعون مسافات بعيدة فى الطريق الجائر ، فلا يكاد صوت الناصح يصل إليهم ، «أولئك ينادَوْن من مكان بعيد »[٣] .

وقد يكون المنافق قريبا منك ببدنه ، ولكنه بعيد عنك بقلب غلَّفته الأهواء ، فهو لايعى ما يقال ولا يتأثر به « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدودا ! »[٤] .

وفى سورة أخرى « وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوَّوْا رءوسهم ، ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون »[٥] .

ولكل كافر صريح أو منافق وجهة نظر يستمسك بها ويجادل عنها .

وليس من الضرورى أن يكون تاركا للحق بعد ما تبين له .

إن كثيرا من المبطلين يعتقد أنه محق !! « أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنا »[٦] . بيد أنهم لا يبقون طويلا حتى يحصدوا المر مما غرسوا .

وللمسالك السوء نتائجها القريبة والبعيدة ، وعندما تتكشف يجىء هؤلاء محاولين الاعتذار «فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا»[٧] .

والمتعصبون فى عصرنا للقوانين الوضعية يدافعون عنها ، ويحسبون أنهم على شىء ، وعندما تسود الفتن البلاد وتكثر الجرائم ، عندئذ قد يفكرون ويتراجعون ويعتذرون «أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا »[٨] .

---

(١) البقرة : ٢٥٧ (٢) النساء : ٧٦ (٣) فصلت : ٤٤
(٤) النساء : ٦١ (٥) المنافقون : ٥ (٦) فاطر : ٨
(٧) النساء : ٦٢ (٨) النساء : ٦٣

وهناك موضعان ينكشف فيهما النفاق ، ويبدو وجهه الدميم : الأول كراهية الحكم بما أنزل الله ، والآخر كراهية الدفاع عن الحق والقتال فى سبيل الله !! والمنافقون عموما يضيقون بأنواع الطاعات من صلاة وصدقة ، وربما استطاعوا الاستخفاء بهذا الضيق ، أو كابروا فيه ، لكنهم أمام الحكم بما أنزل الله والجهاد فى سبيله تنكشف بواطنهم ويفتضحون !

والرسل تجيء من عند الله بمناهج كاملة للحياة الرشيدة ، وأتباع الرسول ـ انطلاقا من الإيمان والسمع والطاعة ـ ينفذون ويستقيمون على الطريق ، وليس أمامهم إلا هذا المسلك ، ولذلك قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (١) .

وليس فى تعاليم الدين ما يحرج النفوس ، ولكن العجزة وذوى العزائم الخائرة يستثقلون الجهاد وصنوف الطاعات ، وكان خيرا لهم لو نشطوا وصدقوا .

ومضت سورة النساء تشرح خلائق المنافقين فى سياق مطرد ، وإن شاب هذا الشرح وصف لطائفة أخرى يكثر وجودها فى المجتمعات ، وتحتاج إلى معالجة متأنية حكيمة ، هذه هى طائفة ضعفاء الإيمان !!

والصلة موجودة بين المرضى والموتى ، بين إيمان مفقود ، وإيمان معتلّ يمكن أن يضيع . إذا لم تتم مداواته .

ولهذا الإيمان المريض صور . . فالصورة الأولى تتضح معالمها فى قوله تعالى : « وإن منكم لمن ليُبَطِّئنّ ، فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ! يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » (٢) .

هذا رجل تحركه مآربه ، وتقترن آماله بمصالحه الخاصة لا بمسيرة الدين ومستقبله . . إن قلبه مشوب يتأرجح بين الإخلاص والأثرة . . !! ومثله رجل آخر يصلى ويصوم ويترك المعاصى . . حتى إذا بلغته فريضة الجهاد جزع واضطرب ، وطلب مهلة « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » (٣) .

والسورة تعالج ضعفاء الإيمان فى أماكن شتى ، ومن رحمة الله ألا يترك هؤلاء صرعى وساوسهم ، حتى يفقدوا دينهم .

---

(١) النساء : ٦٥ (٢) النساء : ٧٢ ، ٧٣ (٣) النساء : ٧٧

لقد قال للصنف الأول : لا تكن عبد رغبة ورهبة تشدُّك مصلحتك الشخصية وحدها إلى الإقدام أو الإحجام ! .

ما معنى أن تحزن لما فاتك من غنيمة عند النصر ، أو تفرح لنجاتك عند الهزيمة !! هذه دناءة لا تليق بمؤمن .

تجرَّدْ لله وأقبل على المعركة لرفع كلمته وحدها «فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما . . » الخ [١].

وقال للصنف الثانى : إن الآجال محددة المواقيت « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا» [٢] .

ومع طول الأجل قد تسقط من الطائرة فتمشى على الأرض بقدميك .

ومع قصر الأجل قد تموت حتف أنفك فيمسك قلبك عن الوجيب وأنت فى بيتك . . !!

والأصناف التى تتردّد بين النفاق وضعف الإيمان كثيرة ، وهاك نماذج أحصتها سورة النساء، قال تعالى : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل : كل من عند الله » [٣].

والآية تذكرنا بموقف الفراعنة من موسى « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطَّيَّروا بموسى ومن معه » [٤] . وكذلك فعلت ثمود مع صالح . . .

والمقصود بالحسنة الأحوال الحسنة من خصب ورخاء وعافية وغنى ، والمقصود من السيئة أضدادها .

ولا صلة لذلك بالاصطلاح الشرعى عن المعاصى والطاعات !

والتشاؤم من بعثة الرسل كفر ، وربما كان هذا الموقف من اليهود ، وربما كان من حدثاء الإيمان الذين عرضت لهم بعد إسلامهم متاعب غير متوقعة !!

وعقيدتنا أن الله هو الضار النافع الخافض الرافع ، وأنه خالق كل شىء وسائقه ، فلا قدرة لبشر على خلق وإنشاء ، ولكن البشر لهم إرادات وقُدَر تعمل داخل نطاق محدود فى هذا الكون الكبير الذى لا ندرى منه إلا القليل . . .

وهذا معنى « قل كل من عند الله » ثم جاء تفصيل لاحق يبين أن أغلب ما يصيب الناس من

---

(١) النساء : ٧٤
(٢) آل عمران : ١٤٥
(٣) النساء : ٧٨
(٤) الأعراف : ١٣١

شرور هو لسيئات اقترفوها أو تقصير وقعوا فيه ، وهذا معنى « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » [١]. وإنما قلنا : أغلب ما يصيب الناس ، لأن الله قد يبتلى بما يرفع الدرجات على طريقة « إذا سبقت للعبد منزلة فلم يبلغها بعمله ، سلط عليه بلاء يرفعه إليها» ـ بصبره وتسليمه ـ

فكل شيء لله إيجادا وإرسالا ، ولنا كسبا واكتسابا ، ونحن السبب فى أغلب السيئات التى تصيبنا . . .

وهذا صنف آخر «وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . . » [٢].

من المآسى أن تشتغل الدهماء بشئون الدولة الكبرى ، وأن تبدى رأيها فيما لا تعرف له رأسا من ذنب . .

وقد رأيت من يتحدث فى الفقه ولا فقه له ، ومن يفتى فى قضايا الحرب والسلام ولا رأى له ، ومن يريد إصلاح العالم وهو عاجز عن إصلاح بيته ، لماذا لا نترك الأمور لأربابها ؟ ولماذا تبعثَر الشئون الحربية والمالية فى كل مكان . . .

يا بـــارى القـوس بريـا ليس يـحسنه لا تظلم القوس أعط القوس باريها ! .

إن الله يأبى أن يُسأل عنه من يجهله « الرحمن فاسأل به خبيرا » [٣].

ومن الخير أن نحترم الإخصائيين ، وأن نقف عند حدود علمنا .

والأمم الكبيرة تحترم الإخصائيين ، وتوفر لهم الجو الذى ينتجون فيه ، فإهانة هؤلاء تضر المجتمع كله .

وماذا على أفراد الجمهور لو أتقنوا ما يوكل إليهم ، وتركوا لغيرهم ما يحسنون ؟

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا ســـراة إذا جـهالهم ســـادوا .

وفى الحديث « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه . . » .

* * *

---

(١) النساء : ٧٩ (٢) النساء : ٨٣ (٣) الفرقان : ٥٩

أمر الله نبيه ألاّ يكترث للضعاف والجبناء ومرضى القلوب ، وأن يتصدى لمقاتلة الفتانين والمعتدين حتى يكسر شوكتهم ويفُلّ حدَّهم «فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا . . . » [١] .

والرجاء هنا من جند الله فى جنب الله ، وختام الآية يشير إلى أن بأس الكافرين شديد وأذاهم بالغ ، ولكن الله أكبر « والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » [٢] .

ومن شاء انضم إلى الرسول والمؤمنين فقوى ظهرهم ونصر الحق معهم ، وهذا الانضمام يسمى شفاعة ، لأن المؤيِّد يجيء إلى الوتر فيجعله شفعا ، وإلى الواحد المنعزل فيصيران اثنين قويين ، وهذا معنى الآية « من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ، وكان الله على كل شىء مقيتا » [٣] أى مجازيا أو مقتدرا .

وأمر الله المؤمنين أن يرقبوا مواقف الناس فى هذه المعارك فمن حاسنهم حاسنوه ، واستقبلوه ببشاشة تدل على حبهم للسلام « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها . . »[٤] . ولا بأس أن تكون الآية فى سائر التحيات المتبادلة ، وقد كان المسلمون يسلمون على الناس كلهم ، ويردون بالسلام على من حيّاهم ، حتى حرَّف اليهود الكلمة ، فجعلوها «السام عليكم» فأُمر المؤمنون أن يكون الردُّ : « وعليكم . . » فيستجيب الله فيهم ولا يستجيب منهم ! !

ويظهر لى أن ذلك موقف خاص ، والآية على عمومها ، ومن كرم الإسلام وأمته أن يحيّوا الآخرين تأليفا لقلوبهم وإعلانا عن مبدئهم وهو السلام . روى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « من سلم عليك من خلق الله فارددُ عليه ، وإن كان مجوسيا فإن الله يقول : « إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها » .

وردَّ الشعبىّ على نصرانىٍّ سلم عليه ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله ، فقيل له فى ذلك فقال : « أليس فى رحمة الله يعيش » ؟ .

ثم ذكر القرآن الكريم بعدئذ المنافقين ، وحدد الموقف منهم .

والمنافقون فى هذا السياق ليسوا جماعة من أهل المدينة يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر كعبد الله ابن أبىّ وشيعته .

بل هم قبائل بعيدة ، أو دول أجنبية بتعبير عصرنا ، يتظاهرون بموالاتنا ، ونصرة

(١ ، ٢) النساء : ٨٤ (٣) النساء : ٨٥ (٤) النساء : ٨٦

قضايانا، ويكيدون لنا فى الخفاء ، ويعبثون بنا ، وقد انخدع بعض المؤمنين بظاهرهم حتى كشف الوحى حقائقهم فقال جل شأنه : « فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا » . لماذا تنقسمون على رأيين فى هؤلاء الناس ؟ وقد افتضحت بواطنهم «أتريدون أن تهدوا من أضل الله ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا »(١) .

ثم فصلت الآيات أصناف هؤلاء البعداء ، فأوضحت أن منهم فريقا يود لنا العنت ، ويتمنى أن نعود كفارا وهو يتربص بنا الدوائر « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله ، فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا »(٢) .

وهناك قوم محايدون ، ليسوا معنا ولا ضدنا ، وموقفنا من هؤلاء السلام ! « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »(٣) !

وهناك قوم مداهنون يريدون اللعب على الحبلين ، فإذا تاحت لهم فرصة انتهزوها ، وهؤلاء ينبغى أن نكون معهم صارمين « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ، كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ، فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم . . »(٤) . وظاهر أن مقاتلة هؤلاء ليست على دخول الإسلام بل على التزام الحياد الدقيق بين المسلمين وخصومهم .

فإذا تبيَّن خَبْؤُهم ، وبدا عدوانهم فلا معنى للسكوت عليهم ، ولذلك قيل فى حقهم : «وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » .

والتقسيم الآنف يتسم بالعدالة ، فنحن لا نُكره الناس على ديننا ، ولا نكره منهم أن يكونوا محايدين بيننا وبين عدونا ما دام الحياد صادقا شريفا .

الذى نرفضه هو العدوان الصريح أو الماكر ، على نحو ما قيل :« لست بخِبٍّ ولا الخِبُّ يخدعنى» . . . ثم ذكرت السورة بعد ذلك الحكم فى القتل الخطأ والعمد ، وكأن هذا الذكر نتيجة مقدمة لجريمة القتل التى تورط المسلمون فيها وهم يجاهدون فى سبيل الله ، فقد حدث فى إحدى المعارك أن أحدق المسلمون بخصومهم ، فخرج رجل من بينهم يعلن إسلامه ، فظنوه مخادعا يريد النجاة بنفسه ، ويلقى السلام وهو كاذب ، فقتله أسامة بن زيد .

فلما اطلع الرسول على ما حدث حزن حزنا شديدا ، وعنَّف أسامة على مسلكه قائلا له : كيف

---

(١) النساء : ٨٨ — (٢) النساء : ٨٩

(٣) النساء : ٩٠ — (٤) النساء : ٩١

أنت بلا إله إلا الله التى نطق بها ؟ قال أسامة : إنما قالها خوفا من السلاح ، فردَّ عليه الرسول : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفا أم لا ؟ .

قال أسامة : فما زال رسول الله يلومنى حتى وددت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ !! ونزلت الآية « يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبيَّنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم ، فتبيَّنوا إن الله كان بما تعملون خبيرا »(١).

والواقع أنه من الخطأ أن يكون الرجل مؤمنا ويبقى بين ظهرانى الكافرين ! يجب أن يلتحق بدار الهجرة ، حتى يعين فى بناء الدولة الجديدة ، ويتحمل مع إخوانه المسلمين أعباء المستقبل المنشود .

إن بقاءه مستخفيا بعقيدته قد يلحق به الأذى ، وقد يستحق به حكم المستضعفين الذين ذكرتهم الآيات بعد « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان . . »(٢) الخ .

والهجرة بالعقيدة طريق الأمان والنصر ، وباب إلى غد أفضل وأسعد ! .

ليس هناك أذل ممن يقبل الدنية فى دينه ودنياه لالتصاقه بتراب ولد عليه ، وقد وعد الله المهاجرين بالمستقبل الأرغد ، والخير الكثير فى الدنيا والآخرة .

والحق أن غيرنا تحرك على سطح الأرض فعمرها وملكها ، وترك عليها عقيدته ولغته .

والمسلمون أولى بالتنقل فى أرض الله ، كى ينشروا رسالتهم ، ويصلوا الخلق بخالقهم .

ذلك ومع التنقل والأسفار يمكن قصر الصلوات المكتوبة ، وقد نزلت فى ذلك الآية «وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا . . »(٣).

والظاهر أن هذه الآية وما بعدها فى صلاة الخوف ، أى عند الاشتباك مع الأعداء ، أما القصر فى السفر فحكمه مقرر من نصوص أخرى ، ويمكن فى علم الفقه الوقوف على الأحكام الكثيرة الخاصة بالموضوع . .

---

(١) النساء : ٩٤ (٢) النساء : ٩٧ ، ٩٨ (٣) النساء : ١٠١

وقد فصلت الآية التالية حكم الصلاة فى أثناء الحروب «وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . . » الخ [1].

وجمهور الفقهاء على أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الإمام ، وأن المسلمين يصلون خلفه بالتتابع . . .

والذى أميل إليه أن هذا الحكم خاص بالرسول وصحابته ، فليس من السائغ أن يؤم المسلمين أحد وهو موجود . . أما فى هذا العصر مثلا فإن تعدُّد الأئمة سهل ، وقد اختلفت أساليب القتال، ومن الممكن أن تتعدد الجماعات ، والقيادات دون خوف على دين أو دنيا .

ولعل ذلك الفهم يشهد له قوله تعالى : « وإذا كنت فيهم . . » ، وما أقوله اجتهاد أرجو أن يكون صحيحا ، فليس بلازم أن يرتبط مليون مقاتل فى الجبهة بإمام واحد فى صلواتهم كلها . . .

* * *

مضت سورة النساء تصف ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب فذكرت قصة من غرائب ما تناوله الوحى الإلَهى ، قصة رجل ليّن الدين ميّت الضمير ينتمى إلى الإسلام دون أن يُشْرَبَ حبه أو يحترم حدوده . . .

ارتكب هذا المرء جريمَة سرقة ، وإخفاء لآثارها ذهب بالمسروق إلى جار يهودى كى يخفيها عنده!

وجاء قفاة الأثر فشعروا بأن التهمة محصورة بين البيتين .

وأخيرا استخرجوها من بيت اليهودى الذى قال ـ وهو صادق ـ إن «طعمة ـ اسم السارق ـ أودعها عنده ! .

وأنكر طعمة وزعم أن اليهودى هو السارق ! وجاء قومه ـ وهم يعلمون إجرام صاحبهم ـ فدافعو عنه ، واستغلوا أن المتهم يهودى من أعداء الإسلام . فألصقوا الجريمة به .

وحسب النبى عليه الصلاة والسلام أن طعمة وقومه صادقون ! وكأنه مال إلى إدانة اليهودى ، وتبرئة المنتمى إلى الإسلام إحسانا للظن به . . .

ونزل الوحى الأعلى يقول « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما» [2] . فمنعه أن يكون مدافعا عن الخونة الآثمين ، وأن يصدقهم فى اتهام يهودى برىء!!

---

(١) النساء :١٠٢ (٢) النساء : ١٠٥ ، ١٠٦

ويقول للرسول آخر الأمر « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ، وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شىء ، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم» (١).

وقال معلقا على أحداث القضية نفسها «ومن يكسب خطيئة أو إثمًا ثم يْرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا » (٢). وعرض التوبة على الخاطئ قائلا « ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما » (٣).

وفى تآمر أهل المجرم على طمس الحقيقة ، وتضليل العدالة يقول « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس . . . . » (٤) ويقول «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولِّه ما تولى ونُصْلِه جهَنم وساءت مصيرا » (٥).

ذلك كله لإحقاق الحق وإبطال الباطل وإنصاف رجل من خصوم الإسلام وإثبات براءته من تهمة تتضافر القرائن على إلصاقها به . !! ما أعظم الإسلام . . . !

وبعد سرد هذه القصة اتجه الوحى إلى طائفة أخرى من الناس لا تزال تعيش فى المدينة إنها بقايا الوثنية المدبرة ، إنهم العرب الذين لما يهجروا بعد عبادة الأصنام ، فقال فى حسم « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » (٦) .

والشرك فساد نفسى وعقلى يهدر كل قيمة للإنسان . والمقصود به تسوية المخلوق بالخالق ، فى العبادة والدعاء والتحكيم والاستمداد والرجاء . . الخ .

إذْ الموحد الحق لا يسلم وجهه إلا إلى الله ، ولا يفوض إلا إليه ، ولا يرجع فى حلٍّ أو حرمة إلا إلى شرعه ، وهو مستريح إلى وعد الله ووعيده فلا يكترث بغيرهما من رغبة أو رهبة بعيدة الصلة بالله .

أما غير الموحدين فتَصرّفهم فى ميادين الحياة أمانى خادعة ، ووعود كاذبة تجعلهم يجرون وراء السراب ! ويضيعون أعمارهم سدى « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » (٧) .

والمباهاة بالأديان لا تجدى أصحابها فتيلا ، المهم هو العمل الصادق والسلوك الراشد .

---

(١) النساء : ١١٣ (٢) النساء : ١١٢ (٣) النساء : ١١٠

(٤) النساء : ١١٤ (٥) النساء : ١١٥ (٦) النساء : ١١٦

(٧) النساء : ١٢٠

وفى عصرنا هذا ـ كما يقول محمد عبده ـ يوجد من يتحدث عن الإسلام فيثنى عليه أعظم الثناء يقول : أى دين أصلح إصلاحه ؟ أى دين أرشد إرشاده ؟ أى شرع كشرعه فى اكتماله ؟ .

فإذا سئل الواحد منهم : ماذا فعل للإسلام ؟ وبماذا يمتاز على غيره من أتباع الأديان الأخرى لا يحير جوابًا . .

وردعا لقائلين غير فعالين يقول الله تعالى : « ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب . من يعمل سوءا يُجْزَ به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » (١) .

ومن الفتن المزعجة فى هذه الأيام العجاف أن نرى اليهود متشبثين بشرائعهم الدينية يلبس أحدهم قلنسوة الصلاة ويمرق بها فى أكثر الميادين زحاما ليؤدى شعيرته .

أما المسلمون فأغلب ساستهم لا يحرص على أوقات الصلاة ، إلا من عصم الله . . . .

وعادت السورة بعدئذ إلى ما بدأت به وهو العلاقات الأسرية ، فنبهت إلى الصبغة العامة لهذه العلاقات ، وهى العدالة والإصلاح « ويستفتونك فى النساء قل : الله يفتيكم فيهن . وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن ، والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط . وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما»(٢) .

وقد تحدث صَدْر السورة طويلا عن اليتامى ، وأطال هنا فى الكلام عما قد يقع من تنافر بين الزوجين ، فندب إلى الإصلاح ومقاومة شح النفس والتزام الإحسان ، والتقوى والعدل فى حدود الطاقة . .

فإذا تنافر الودّ وانكسرت الزجاجة وعزّ الإصلاح فليلتمس كلا الطرفين ما يعوضه من فضل الله «وإن يتفرقا يُغن الله كلا من سعته . وكان الله واسعا حكيما » (٣) .

وخزائن الله لا تنفد ، فلا تسئ الظن بالمستقبل إن فاتك الحاضر وتشبث بالتقوى والطاعة «ولله ما فى السموات وما فى الأرض ، ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ، وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدا » (٤) .

وتكررت هذه الجملة ثلاث مرات فى سياق متقارب لتمنع اليأس وتصلح بال كلا الزوجين إذا حكمت الأقدار عليهما بالفرقة . . !

---

(١) النساء : ١٢٣
(٢) النساء : ١٢٧
(٣) النساء : ١٣٠
(٤) النساء : ١٢١

ثم أكدت قيام الأسرة على العدالة ، بل قيام المجتمع كله على القسط والإنصاف فى آية جامعة «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولوعلى أنفسكم أو الوالدين والأقربين . . . »(١).

والقيام بالقسط ليس شريعة بدأ بها الإسلام ، إنه شريعة الأنبياء كلهم « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (٢).

وهذا سر مجيء الآية التالية « يأيها الذين آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل » (٣).

إن الجور داخل البيت فتنة كبيرة سيئة الأثر على الزوجين والأولاد جميعا ، والبيت المضطرب يشيع البلاء فى البيئة كلها . . .

إن سورة النساء استعرضت طوائف المجتمع ، ولم يقف الحديث فيها عند شئون الأسرة وحدها فالعنوان خاص وموضوع السورة عام .

وقد رأينا كيف تناول القرآن الكريم مواقف المنافقين ، وكيف كشفها وحذر منها . . .

وقبل أن تنتهى السورة عاد إلى القوم لينكل بهم ويحذّر منهم فى شأن مهم !

المؤمن الحق يُوَقِّر كلام ربه ، ويوفر له جوا من الاحترام والمهابة ، ويقاطع المجالس التى تنال منه وتتجرأ عليه . . ويعالن أصحابها بالهجران والرفض . . .

ولكن أصحاب القلوب الفارغة من اليقين لا يبالون بالجلوس حيث يهان الوحى وتُلْمز أحكامه! وفى هؤلاء نزل قوله تعالى « بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياءمن دون المؤمنين . أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعا . . » (٤).

مهما كان جانب العدو عزيزا فلا تتزلف إليه ، ولا تهادنه على حساب دينك وكرامته .

إن المنافقين وحدهم هم الذين لا يبالون بإهانة الحق وتجريح رجاله « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذن مثلهم . . . » (٥).

ومؤامرات المنافقين لاحقت الإسلام طوال أيام البعثة فلا عجب إذا تكرر الرد عليها وطال التصدّى لها . .

* * *

(١) النساء : ١٣٥ (٢) الحديد : ٢٥ (٣) النساء : ١٣٦

(٤) النساء : ١٣٨، ١٣٩ (٥) النساء : ١٤٠

عادت سورة النساء فى أواخرها للحديث عن أهل الكتاب فضمت جديدا لا غنى عنه !

وأهل الكتاب يهود ونصارى . فأما اليهود فيرفضون عيسى ومحمدا معا ، يقولون عن عيسى إنه أتى لغير رِشْدة ، فهو زنيم وأمه بغىّ !!

وأما محمد فهو أعرابىّ ادّعى الوحى ولا صلة له به !

وأما النصارى فيرون محمدا مقطوع العلاقة بالسماء ويذكرونه بنعوت سيئة . . .

هل هؤلاء المكذبون لرسل الله يوصفون بأنهم مؤمنون بالله وكتبه ورسله ؟ تقول السورة الكريمة عن هؤلاء « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم . وكان الله غفورا رحيما » (١).

وبعد مناقشة لأهل الكتاب سنتأمل فيها بعد قليل قال الله لرسوله محمد « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا » (٢).

إن الذى أوحى إلى هؤلاء أوحى إلى محمد ، كلهم سفراء من الله إلى خلقه ، كُلِّفوا فبلَّغوا ، ما خانوا و لا فرطوا .

و إذا وصف محمد وحده بشىء فهو أنه أفصحهم بيانا وأشدهم بلاء وأصلهم فى إحياء الفطرة ومناشدة العقل . . !!

وتراثه الباقى لا يزال وسوف يبقى إلى قيام الساعة يؤسس-اليقين ، ويوقظ الغافين ويسدد الخطى إلى رب العالمين .

ولذلك قال الله فيه « لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيدا » (٣).

والنظرة المحايدة إلى كتاب محمد عليه الصلاة والسلام تؤكد أنه لا نظير له بين تراث النبيين جميعا . كما أن النظرة المحايدة إلى حياة محمد تشير إلى أنه تفرد بنسق فى الذكر والشكر والصبر والتوكل وبعد الغاية تجعلنا نجزم بأنه إذا سُلِب النبوة لم يستحقها من بعده أحد فى الأولين والآخرين !!

---

(١) النساء : ١٥٠ ـ ١٥٢ (٢) النساء ١٦٣ (٣) النساء : ١٦٦

ونرجع إلى مناقشة القرآن لأهل الكتاب : ماذا يطلبون ؟ «يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا : أرنا الله جهرة !! » [١].

وهذه ليست مقترحات عقل يبحث عن الحقيقة ويسعى إلى اليقين !

هذه مقترحات طبع غليظ وقلب متكبر ولذلك لما سئل موسى ما سئل ، وفجر قومه على هذا النحو عوقبوا بصاعقة استأصلت شأفتهم .

واليهود من أغلظ الناس طباعا وأقساهم قلوبا ، ولذلك أخذ عليهم الميثاق بالتهديد !! رُفِعَ الجبل فوق رءوسهم ، وأوشك أن ينقضَّ عليهم ليكون فوقهم مقبرة جماعية . . . . .

ومع ذلك نقضوا الميثاق ! قال تعالى «فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما » [٢].

وما داموا يرون مريم بغيا فهم يسعون إلى قتل ابنها لا سيما وقد ادعى النبوة !!

وقد نجى الله عيسى من مكايدهم ، ولم ينجح سعيهم فى الخلاص منه فقال . . «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبِّه لهم . وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه . . . » [٣].

ولكن مواريث الوهم التى تسيطر على العامة جعلت كثيرين يصدقون شائعة الصلب والفداء ، ويجعلونها عقيدة ثابتة .

والواقع أن السلبية السائدة تخدم ظنونا لا تعتمد على عقل ولا نقل ، ولو اتسعت المعرفة وتحرر الفكر لتغير الموقف ولذلك يقول القرآن الكريم مؤكدا نجاة عيسى وعبوديته لله الواحد «لكن الراسخون فى العلم منهم ، والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما » [٤].

وتجيء خواتيم سورة النساء لتصدر أحكاما حاسمة على كل الطوائف التى سبق الحديث عنها ، فالكافرون والمنافقون لهم سوء العقبى ، لأنهم يجهلون ويتعصبون للجهل ويعملون على تجهيل الآخرين

أى أنهم يكفرون ويمنعون الغير من الإيمان ، ولذلك قال فيهم « إن الذين كفروا وصدوا عن

---

(١) النساء : ١٥٣

(٢) النساء : ١٥٥ _ ١٥٦

(٣) النساء : ١٥٧ _ ١٥٨

(٤) النساء : ١٦٢

سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا . إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا . . . الخ »[1].

والمتفرِّسُ فى ملامح الاستعمار الحديث يراه جامعا بين إلحاد الفكر وظلم الشعوب أو بين كراهية الإسلام وإذلال اتباعه !

ثم يتجه إلى اليهود نداء يستحق التأمل « يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، فآمنوا خيرا لكم . وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليما حكيما . . »[2].

لقد نودى اليهود مجردين من كل انتساب علمى ، لأنهم حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها . ! ولم يُعتبروا أهل كتاب لأنهم شابهوا عبدة الأصنام فى الجهل والإنكار ، بل زادوا عليهم الغلو فصحَّ أن ينادوا بيا أيها الناس كما ينادى أهل مكة ، ومن لا علاقة له بوحى قط . . !

وتلا ذلك نداء للنصارى الذين غلبتهم الحيرة ، وأتاهتهم فى فجاج كثيرة ، وسبب ذلك الغلو الشديد !

إن الغلو يبعث على المبالغة ، وينأى بأصحابه عن الجادة من أجل ذلك يقول الله لهم « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ،انتهوا خيرا لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد . له ما فى السموات وما فى الأرض . وكفى بالله وكيلا»[3].

والحق أن التنقيب فى الكون ، والبحث الشاق فى السموات والأرض لا يُسفر إلا عن إلّه واحد، أين الآخر ؟ أين ما خلق ورزق ؟ من الذى شارك الله فى خلق الذرة والمجرَّة ؟ من الذى شاركه فى خلق النطفة والبويضة ؟؟ .

من الذى يساعده فى تدبير الأمور ؟ ، إن العالم الكبير لا تديرهُ شركة من أى نوع !

إنما الله إلّه واحد ! الخضوع له حق ، والامتثال له حق ، والزلفى إليه واجبه ، وعبادته فريضة على الكل .

ولذلك قال تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون . ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا »[4].

---

(١) النساء : ١٦٧ ، ١٦٨ (٢) النساء : ١٧٠

(٣) النساء : ١٧١ (٤) النساء : ١٧٢

وتختم سورة النساء بآية تشرح ميراث الكلالة ـ وهو من لا ولد له ولا والد .

وهى بذلك الختم تكمل ما بدأت به السورة من حديث عن الأسرة وتكوينها وحراستها وتفصيل قضاياها « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم » .

وقد رأيت أن موضوع السورة عام يتناول المجتمع كله وأحوال الطوائف العديدة التى يتكون منها ، فحديث النساء جزء من كل . أو كما عبّرنا : الأسرة مجتمع صغير ، والمجتمع أسرة كبيرة ، وهداية الله تشمل الجميع لأنه بكل شيء عليم .

وقصار النظر يحسبون السورة أجزاء مفككة ، وهذا خطأ يحمى الله منه أهل التدبر والاعتبار. . . .

أرفض خداع العناوين ، إن أسماء السورة القرآنية شىء غير موضوعاتها ، الموضوعات غالبا متشعبة مستفيضة أما الأسماء فذات دلالات جزئية .

خذ مثلا سورة البقرة ، إن قصة بنى إسرائيل مع البقرة التى أمروا بذبحها لا تستغرق نصف صفحة من صفحات السورة التى تزيد على الأربعين . . . .

والسورة بعدئذ بحر متلاطم من التاريخ والتشريع والحكمة والأدب . . .

وكذلك سورة النساء ! إن شئون الأسرة فيها محدودة أما السورة نفسها ففيها التركيبة الاجتماعية التى تلحظ على العالم أجمع فى شتى أقطاره .

ولقد ألف كبار العلماء كتبا حسنة شرحت ما فى هذه السورة من آداب اجتماعية عالية تتناول الأصدقاء والخصوم ، والكبار والصغار ، والأغنياء والفقراء . . . .

خصوصا أتباع الأديان المختلفة وما ينشأ بينهم من أخذ ورد ، وحرب وسلم ، وأوضحت المنهاج الذى يلتزمه المسلم ، ويثبت عليه ما دام الليل والنهار .

* * *

سورة المائدة

سورة المائدة وتسمَّى كذلك سورة العقود . والتسمية الأخيرة أدلّ على موضوع السورة الواسع !

أما الأولى فهى تشير إلى اقتراح الحواريين على عيسى أن ينزل عليهم مائدة من السماء يأكلون منها ويستبشرون بها .

وهو اقتراح مثير للدهشة ، ولكن الله سبحانه قبله تأييدا لنبيه وتصديقا لرسالته . . !

وقصة المائدة لاتستغرق من السورة سوى أربع آيات أما قضايا العقود فتشمل أغلب السورة . . .

وقد لوحظت فى السورة المباركة كثرة النداءات ، فهناك أولا ستة عشر نداء للذين آمنوا [1] .

(١) يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . . .

(٢) يأيها الذين آمنوا لاتحلّوا شعائر الله

(٣) يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم

(٤) يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله .

(٥) يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم .

(٦) يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة .

(٧) يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء .

(٨) يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه . . . .

(٩) يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء .

(١٠) يأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم .

(١١) يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس .

---

(١) أرقامها على التوالى من السورة ١ ، ٢ ، ٦ ، ٨ ، ١١ ، ٣٥ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٦

(١٢) يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد .

(١٣) يأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم . .

(١٤) يأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم .

(١٥) يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم .

(١٦) يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية . . .

وهناك نداءان للنبى خاصة بوصف الرسالة (١) يأيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر . (٢) يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك [1] . . .

وهناك خمسة نداءات لأهل الكتاب بعضها مباشر مثل (١) يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم (٢) يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل .

وبعضها بوساطة الرسول الكريم مثل (٣) قل ياأهل االكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله (٤) قل يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم . (٥) قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم [2] . . .

وهذه النداءات تعقبها إفادات وإضاءات وتعليمات وتوجيهات تحتاج إليها الجماعات حتى تقوم بأمر الله وتستقيم على منهاجه . .

وقد عدها الشارع عقودا حقيقة بالوفاء .

ألا ترى أن الجهاد عقد بين الله والعباد « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . . » [3] .

وفى هذه السورة نداء للمؤمنين بالوضوء قبل الصلاة . . . والصلاة نفسها هى أول بنود الميثاق المأخوذ على بنى إسرائيل كما سترى . .

وبعد عدد من التعليمات التى شرعها الله لبناء المجتمع الإسلامى قال سبحانه : « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور» [4] .

والعلاقات المؤكدة تتطلب مسالك صارمة ، وعملا محكما ، وتأمل فى قول الشاعر لنفسه :

لا . لا . أبوح بحب بَثْنَةَ إنها ... أخذت علىّ مواثقا وعقودا !!

---

(١) أرقامها على التوالى ٤١ ، ٦٧

(٢) أرقامها ٥٩ ، ٧٧ ، ٦٨

(٣) التوبة : ١١١

(٤) المائدة : ٧

إن العلاقة بين حبيبين أصبحت ميثاقا معقودا ! فكيف بالعلاقة بين العبد وسيده والمرء وخالقه القائم على كل نفس بما كسبت ؟ .

إن إعظام أمر الله من دلائل الإيمان ، وذلك كله من وراء تسمية السورة بسورة العقود . . .

وقد أخذ الله الميثاق على الأمة الإسلامية أن تؤمن به وحده ، وتعمل له وحده ، وأن تدعو إلى دينه ، وأن تكون نموذجا تؤخذ منه الأسوة الحسنة ، ويتعلم الناس منه خير الدنيا والآخرة . . !!

وليس المسلمون فى ذلك بدعا ، فقد أخذ الله المواثيق على من قبلهم أن يلتزموا هداه ويحيوا كما أمر . . ! قال تعالى : « ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم أثنى عشر نقيبا ، وقال الله إنى معكم : لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل »[1] .

ولم يوف بنو اسرائيل بهذا الموثق بل نقضوه وتوارثوا نقضه فلعنهم الله وجعل قلوبهم قاسية !!

والقلب القاسى أبعد شىء عن الله !! وقد رأيت فى تجاربى أن الفرق بين تدين الشكل وتدين الموضوع هو قسوة القلب أورقته . !

بعض الناس فى طباعهم جلافة وقساوة لاتخفيها صور العبادات التى يستسهلون أداءها .

ارتكب أحدهم خطأ معى ، ثم عرف الحق فكره الاعتذار وتمنى لو لم يعرف هذا الحق !! هذه طباع بعض الخوارج قد يكرهون أهل الإيمان ، ويتساهلون مع أهل الكفر !! .

وماتقول فى امرئ يرى أن صلاح الدين والدنيا لايتم إلا بقتل على بن أبى طالب فيقتله مستبيحا دمه ومتقربا إلى الله به . . !

لقد فهمت لماذا ادعى واصل بن عطاء الشرك هو ومن معه عندما قابلوا ثلة من الخوارج فسألوهم عن دينهم !! لو عرفوا : من هم لقتلوهم !!

قالوا : نحن مشركون مستجيرون ! حتى يعاملوا بمقتضى الآية الكريمة « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه . . »[2] .

إن قسوة القلب لعنة من الله نستعيذ به منها سبحانه . . .

واليهود من أقسى الناس قلوبا ، وسيرتهم مع شتى الأمم دليل على ماطبعوا عليه من جلاد وتحجُّر ! ونحن نحذِّر من خلائقهم ، وننبه المسلمين إلى وخامة التشبه بهم . .

إن تدينهم لاخير فيه « ولاتزال تطلع على خائنة منهم »[3]

---

(١) المائدة : ١٢ (٢) التوبة : ٦ (٣) المائدة : ١٣

والغريب أن الله يختم هذه النصيحة بقوله « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين» ! ![1].

وكما أخذ الله الميثاق على اليهود أخذه على النصارى ، وإن كان التعبير الوارد فى ذلك يدفع إلى التأمل لأنه يشير إلى بعد الشقة . بين نصارى العصور الآخرة ، وبين عيسى والحواريين أصحاب الدين الحق .

لذلك قال : « ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون »(٢) .

وتاريخ المسيحية شاهد صدق على هذا الشقاق الدامى بين شتى الكنائس .

ولن تنسى أوربا الحروب الدينية الكثيرة التى ملأت ساحاتها بالدماء ! وقد وضعت هذه الحروب أوزارها ، إلا أن الكراهية ناشبة فى أعماق الصدور يخفيها انشغال الكل بالعلمانية التى أقصت الدين وسيطرت على الدولة .

ونرى أن هذه الهدنة عارضة ، وأن الخصام عائد إلى الظهور حتما لأن أسبابه قائمة ، . وهو ماتؤكده الآية .

والواقع أنه لاسلام إلا فى الإسلام ، ولن تطهر الأيدى من الدماء إلا إذا عمرت الأفئدة بالاعتقاد الحق فى الإله الواحد !

وهذا معنى قوله تعالى موقظا القوم إلى مايجب عليهم « . . . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » [٣] .

إذا فرق الأمم الباطل فلن يجمعها إلا الحق !!

* * *

(١) المائدة : ١٣ — (٢) المائدة : ١٤ — (٣) المائدة : ١٥ ، ١٦

توحيد الله هو العهد الأعظم الذى أخذ على العباد قاطبة فليس لبشر أن ينقض هذا العهد أو يتمرد عليه !!

ومع ذلك فإن البعض يشبه اللقيط الذى يجهل أباه فهو يحيا بعيداً عنه ، أو يعرفه معرفة فاسدة فهو سيئ الظن به غبى الفهم له . .

والذين يظنون مع الله إلـها آخر هم من هذا القبيل .

وأهل الأديان السماوية يؤكدون أنهم موحدون ! والواقع أن موقف النصارى من عيسى يحيط به ضباب كثيف ! إنهم يعبدون الله الواحد كما يقولون . فما مكان عيسى فى هذه العبادة . . ؟

عند التحقيق يبدو وكأن عيسى مقحم على الواحد المعبود ، أو يبدو كأنه شخص له مكانة عظيمة رجراجة لايمكن ضبطها . !!

ونحن فى هذه الأيام نسمع من رؤساء الكنائس أن الله واحد فإذا صدقوا فعيسى عبده لا محالة . . . !!

وهذا ما جعلنى أنظر بجد وثقة إلى ما أعلنه الدكتور محمد معروف الدواليبى من أن لديه وثيقة صادرة عن الفاتيكان تقر فيها أن المسيح عبد من عباد الله ، ولا علاقة له بألوهية .

وقد أصدر الفاتيكان هذه الوثيقة بعد دراسات كنسيّة ظلت أربع سنين كاملة شارك فيها عدد من الرجال الثقات . .

وأضاف : أن الوثيقة تتضمن تعليمات صريحة بألا يذكر المسيح على أنه الإلـه ، وإنما يذكر فيها الله خالق السموات والأرض ورب ابراهيم !!

والغريب أن هذه الوثيقة اعترفت بأن الكنيسة ارتكبت مظالم عديدة ضد الإسلام والمسلمين ، وأن يجب الانفتاح فى هذه الأيام على الإسلام .

كما أبدت الكنيسة أسفها على أنها كانت من وراء الحروب الصليبية ثم من وراء الاستعمار العالمى الجديد للدول الإسلامية .

وأنها كانت من وراء قيام إسرائيل لضرب العروبة والإسلام ، والواجب أن يدخل النصارى فى حوار مع العرب والمسلمين لمعالجة هذا الماضى السيئ . .

قال الدكتور الدواليبى : إن اليهود بوسائلهم الكثيرة قاموا بسحب هذه الوثيقة ، وقد وضع الأمير « جيه » رئيس المخابرات الانجليزية الأمريكية كتابا فضح فيه ماصنع اليهود ، فقاموا بخطفه وزوجته وأولاده . . إلخ .

ونحن نذكر القراء بأن موقف النصارى من عيسى بن مريم شديد الإبهام كما أومأت إلى ذلك سورة النساء فى قوله تعالى « ماهم به من علم إلا اتباع الظن وماقتلوه يقينا »[1] . .

إن الله وحده هو الحق المبين ، وذاك سر غضبه الشديد عندما يقول « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا . . »[2]

واليهود ـ وإن أنكروا التثليث ـ يصفون الله بصفات رديئة ويتطاولون عليه بألسنتهم ، وليس فى قلوبهم خشوع ولا إخلاص .

ومع ذلك يزعمون أنهم الشعب المختار ، وأن الله خالق العالم من أجلهم ولخدمتهم . . وكلا الفريقين من أهل الكتاب يزعم صلة خاصة بالله ، ومكانه فريدة عنده !

وكُلٌّ يدّعى وصلاً لليلى وليلى لاتُقِرُّ لهم بذاكا . . . ! !

ونحن نعلم أن الإيمان الحق والعمل الصالح وحدهما هما أساس القبول الأعلى ، وبهما تسبق الأفراد والأمم ، ولذلك لم يعجبنى قول البوصيرى فى تفضيل الأمة الإسلامية على غيرها .

لما دعا الله داعينا لطاعته بأشرف الخلق كنا أشرف الأمم ! !

إن المسلمين لايشرفهم إلا الإخلاص لله ، والتفانى فى طاعته ، والشجاعة فى نصرته والجراءة على عدوه .

والانتماء المجرد لمحمد عليه الصلاة والسلام ـ وهو أفضل الخلق يقينا ـ لايغنى عن العاطلين شيئا . . .

وقد ساقت سورة المائدة قصتين تكشفان أن أصحاب الدعاوى لاوزن لهم مالم تؤيدهم بيِّنات!

الأولى قصة بنى إسرائيل عندما كلِّفوا بمقاتلة الجبارين ودخول أرضهم ، لقد استثارهم موسى ، وذكّرهم بنعم الله عليهم « ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا و آتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين[2] . . »

وهذا كلام يحتاج إلى شرح . إن بنى اسرائيل حَمَلوا دعوة التوحيد بين جماهير من البشر هامت فى عبادة الأصنام ، فكانوا ـ بالدعوة التى حملوها ـ أعلى من غيرهم قدرا . . . وقد أرسل الله إلى العرب أنبياء يُعدّون على الأصابع على حين أرسل فى بنى اسرائيل عشرات الأنبياء ! !

أما جعلهم ملوكا فهو بالاكتفاء والاستغناء على نحو ماجاء فى الحديث « من أصبح آمنا فى سربه ، معا فى فى بدنه ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » ! !

---

(١) النساء : ١٥٧ (٢) المائدة : ١٧ (٣) المائدة : ٢٠

ويظهر أن بنى اسرائيل لم يفهموا أنهم شرفوا بالدعوة ، بل ظنوا أن الدعوة شرفت بهم !!
وحسبوا أنهم مقبولون عند الله ، ولو لبسوا الدين على أجسام قذرة .
وهيهات لقد محصهم القدر العادل فلما تبيَّن جبنهم تقرر طردهم قال لهم موسى : « ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولاترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين»[١] .

فأبوا الانقياد لأمر الله ، وبلغت بهم الوقاحة أن قالوا لموسى «فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون »[٢] !!

فجعل الله عليهم سيناء مصيدة يحتبسون داخلها ، ويتيهون فيها لايعرفون طريقا للخروج أربعين سنة حتى هلك أكثرهم !!
وبقى مَنْ ترشحهم أخلاقهم لرضوان الله وحمل رسالاته . .
هذه هى القصة الأولى فى بيان أن الدين رجولة وإقدام وصدق وإيمان .
أما القصة الثانية فهى قصة ابنى آدم اللذين قتل أحدهما الآخر ! كان أحدهما بليدا فاشلا فنقم على أخيه الأفضل منه .
والتناقض فى حياة هذا الإنسان ظاهر . فهو قد فهم جيدًا أن أخاه أفضل ، وبعد أن تخلص منه لم يفهم كيف يدفنه بعد مماته !!
كان غبيا هنا ذكيا هناك !! « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ! قال : ياولتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين »!![٣] .
والفاشل يظن أنه إذا قتل الناجح يستفيد قوة جديدة .
وهذا مستحيل ، فإنك لن تبنى نفسك بهدم غيرك ، ستظل كما أنت !
إن الصلاح جهد إيجابىّ فى تقوية النفس وتزكيتها ، وليس قدرة على العدوان ! « إنما يتقبل الله من المتقين »[٤] وقد عدَّ الله سبحانه هذه الجريمة ضد الإنسانية كلها وليست ضد فرد واحد « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا . ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا »[٥] .

والقرآن الكريم يربّى المسلمين على ضوء ما وقع فى العصور الخوالى ، ويشرع لهم من الأحكام مايجنبهم مزالق الأمم الأولى ، ومن ثم فقد ذكر بعد هذه القصة حكم المفسدين فى الأرض المعتدين على الأنفس والأموال .

---

(١) المائدة : ٢١ (٢) المائدة : ٣٤ (٣) المائدة : ٣١
(٤) المائدة : ٣٢ (٥) المائدة : ٣٢

فشرع عقوبة قطع الطريق ، وعقوبة السرقة ، وبين التشريعين نبه إلى ضرورة تقوى الله .

ان ابن آدم الفاشل إنما ضاع لفراغ قلبه من التقوى ، فعلى أهل الإيمان أن يتجنبوا ذلك المصير « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وابتغوا إليه الوسيلة ، وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون »[1] .

والوسيلة المطلوبة هى الأعمال الصالحة ، والعمل الصالح يحتاج فى أدائه إلى عزيمة تقهر العقبات ، وتسترخص النفس والنفيس ، وهذا هو الجهاد المؤدى إلى الفلاح .

* * *

الوحى الإلهى هو المصدر الفريد لشرائع العبادات ، وشرائع المواريث، وشرائع الحدود والقصاص ، ولامكان هنالك لرأى أو قياس أو مصلحة .

وأهل الأديان المتعاقبة يتوارثون هذه الحقيقة ، ولكنهم يحيدون عنها أحيانا لغلبة الأهواء ، وضعف مبدأ السمع والطاعة !!

إن الجرائم التى تقع على الدماء ، والأموال والأعراض خطيرة الآثار ، ولذلك تولىّ الله سبحانه الحكم فيها ، ولم يتركها لاجتهاد أحد ، لأن الناس سوف يتساهلون فى التطبيق الواجب ، ويحتالون باختلاق بدائل لاتسمن ولاتغنى من جوع . . .

والبشر عندما يَسُنّون قانونًا يتصورون أنفسهم مكان الجانى فتخفّ حدّتهم ، وتذهب غيرتهم على الحق ، فإن لم يضعوا أنفسهم مكان الجانى وضعوا أولادهم وأقاربهم ، فكانوا أميل إلى تخفيف العقوبة والرحمة بالمجرمين !

وربما كان للأوضاع الاجتماعية أثرها فى مؤاخذة الضعيف ومسامحة الشريف !

وقد شاع ذلك فى أهل الكتاب الأولين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ ! وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** » . . .

وقد تطورت الأمور بين أهل الكتاب فأهمل حكم القطع وتنوسى عمدا ، وحلت مكانه عقوبات بالسجن مدداً مختلفة مما جعل جرائم السرقة لاحصر لها .

وعُدَّ ذلك عدالة أرقى من عدالة السماء .

وكذلك وقع التغيير فى جرائم شتى وانتهى الأمر إلى إلغاء الحدود كلها . . !!

(١) المائدة : ٣٥

وقد تفرَّسْتُ فى أحوال المجتمعات ، وعواقب هذا التفريط فوجدت الخسائر المادية والمعنوية كثيرة ، اختلّ الأمن وضاعت أموال وأعراض ، وحلّت بالأمم كوارث شتى .

ففهمت معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَحدٌّ يقام فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمطروا ثلاثين صباحا » .

وماروى عنه « أقيموا حدود الله فى القريب والبعيد ، ولاتأخذكم فى الله لومة لائم »!!

وكان المسلمون فى تاريخهم الطويل يقيمون الحدود ويصونون الدماء والأموال والأعراض .

ولم يتركوا الأحكام السماوية إلا عندما أغار عليهم التتار . واستبدلوا بالأحكام السماوية تعاليم من وضع طواغيتهم فى كتاب اسمه « الباسق » . .

وتكررت هذه المحنة عندما أغار الأوربيون على العالم الإسلامى ، وأحلوا القوانين الوضعية محل الشرائع الدينية فشاع فى أرجاء الدنيا فساد عريض .

والأوربيون فى قوانينهم أباحوا الزنا مادام بالتراضى الحرّ ! وأباحت أرقى دولهم اللواط !!

وأهالوا التراب على شرائع الحدود والقصاص فلا يتحدث عنها أحد إلا جريئا يتعرض للملام والمؤاخذة . .

والأوربيون فى هذا المضمار يقلدون آباءهم الأولين ، وإن كان فجورهم تجاوز الحدود ، وقد حدث عندما هاجر الرسول إلى المدينة أن قدم إليه اليهود زانيين للنظر فى أمرهما .

فسألهم الرسول عن الحكم فى كتابهم قالوا الجلد وتسويد الوجوه !!

فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : بل الحكم عندكم الرجم حتى الموت !!

فكابروا حتى جىء بالتوراة ، واستخرج الحكم منها وهو الرجم الذى أرادوا إلغاءه ، وقد نزل فى هذا قول الله تعالى : « يأيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا ، سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا . . »[1] .

والتسوية بين المنافقين واليهود مقصودة فى الآية ، فكلا الفريقين خرِبُ القلب ، وكلاهما حرب على شرائع السماء . . !!

وظاهر أن الرجم من الجزء الصحيح الباقى فى التوراة ، وقد رأى اليهود تعطيله !

فماذا عند القوم بعد ذلك إلا وصف الله وأنبيائه بما لايليق ؟ .

وقد أبى رسولى الله أن يلين للقوم وإن كابروه طويلا « ومن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ، أولئك الذين لم يُرد الله أن يُطهِّر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم»[2] .

---

(١) المائدة : ٤١ (٢) المائدة : ٤١

والآية لاتوهم الجبر فإن المراد منها أن من ركب قطار الشر انطلق به ، ومن زرع الشوك فلا يجنى فاكهة !

الآية هنا كقوله تعالى فى سورة مريم : « قل من كان فى الضلالة فليمدُدْ له الرحمن مدًّا»[1] .

والمفروض أن شرائع الدماء والأموال والأعراض تنفذ فى الدولة على كل من يستظل برايتها ، وإن اختلفت الأديان . .

والذى نراه أن اليهود كان لهم كيان مستقل ، والمعاهدات التى عقدت معهم أول الهجرة لم تلغ هذا الاستقلال .

ومن ثم لم يرغمهم الرسول على إقامة الحكم الذى أصدره ، بل قيل له : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط »[2] .

والمسلمون مكلفون بإقامة حكم الله داخل سلطانهم ، ولا طاقة لهم على إقامته فى كل مكان ، وأهل الأديان الأخرى تترك لهم شعائرهم وعقائدهم دون مساس بها . أما بقية الشرائع العامة فتتناول الجميع . . .

وحكم الرجم فى سفر التثنية أن من تزوج عذراء ، فوجدها ثيبا ترجم عند باب بيت أبيها ، وإذا وجد رجل مضطجعًا مع امرأة ذات بعل يقتل الاثنان . .

ويقول السفر المذكور : « إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها آخر فى المدينة فاضطجع معها ، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا ! !

الفتاة من أجل أنها لم تصرخ ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه ، بذلك تنزع الشر من وسطك . . . »

ثم ذكر القرآن الكريم تاريخا موجزًا لموقف أهل الكتاب من شرائع الدماء والأعراض ، فبين أنها نزلت فى التوراة ليلتزم بها اليهود .

ثم تأكدت فى الإنجيل ليحكم بها النصارى .

فمن تركها جحدا أو جورًا أو فسقا فهو داخل فى الكفر أو الظلم والفسوق . .

وهذا التاريخ ذكر لواقع مضى ، فالتوراة تحكم أتباعها مادامت التوراة باقية .

فإذا جاء بعدها الانجيل انتقل الحكم إليه وعلى أتباعه تنفيذ ماجاء به .

فإذا جاء القرآن فإن على الفريقين الالتفات إلى الوحى الجديد والأخذ عنه ، لاسيما وهو

---

(١) مريم : ٧٥ (٢) المائدة : ٤٢

يصحح الأخطاء ، ويبعد الدخيل وينصف الحقيقة « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنْهاجاً . . »[١] .

هناك أمران تضمنتهما هذه الآية ، الأول أن الدين اكتمل فى رسالة محمد عقيدة وشريعة .

فأما من ناحية الاعتقاد فقد اتضح على خير وجه معنى التوحيد والجزاء والعبادة ، والرسول فى هذا كله مؤكد لمن سبقوه ، ومصحح لأغلاط الأتباع « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »[٢] .

وأما الشريعة فإن أصولها نزلت من عند الله ثم تفرع منها بعدُ مادل عليه القياس والاستصلاح والاستحسان وغير ذلك من قواعد الفقه العملى الكافل لمنافع الناس .

والدين واحد ، ولكن الشرائع تختلف وهنا يجىء الأمر الثانى .

وأساسه أن رسالة محمد تضمنت أسباب بقائها إلى آخر الدهر ، فهى موائمة لطبائع البشر عامة ، متجاوبة مع نداء الفطر السليمة ، وصبغتها الإنسانية العامة واضحة فى سائر تعاليمها . .

أما تراث أهل الكتاب السابقين فهو يشبه دواء حُدِّدت صلاحيته بمدة معينة لايصلح بعدها للاستشفاء ، بل قد يكون سببا فى مضاعفة الآلام بعد انتهاء تاريخه ويذكر صاحب المنار أن اليهودية قائمة على الشدة فى تربية قوم ألفوا العبودية والذل وفقدوا الاستقلال والرأى فهى مادية جثمانية صارمة تعالج شعبا غليظ الرقبة متحجر الطباع .

وقارئ الأسفار الخمسة يعيش فى جو من البداوة والضيق . .

أما المسيحية فهى لم تنقض النواميس الأولى ، وإنما نزعت إلى ترقيق العواطف ، ومنع الصدام مع الرومان الحاكمين ، وقبول سلطتهم العاتية على أساس . « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر !! » .

ثم مالبثت قليلا حتى تحولت إلى صليبية شديدة البأس والخصام ، لاتقبل سلاما من مهزوم .

أما الإسلام فأفق آخر زاوج بين الروح والجسد والقلب والعقل والدنيا والآخرة .

وأكبر الإنسان وأعلى رسالته ، وأقام علاقته بالله وبالناس على دعائم عقلية راسخة . . .

قال الشيخ رشيد رحمه الله بعد بحث طويل « مَنْ فقه ماحققناه علم أن حجة الله تعالى فى إكمال الدين بهذا القرآن الكريم . وختم النبوات بمحمد عليه الصلاة والسلام . وجعل شريعته عامة دائمة . . هذه الحجة لاتظهر إلا ببناء هذا الدين على أساس العقل ، وبناء هذه الشريعة على أساس الاجتهاد ، وطاعة أولى الأمر ـ الحقيقيين ، وهم جماعة أهل الحل والعقد !! فمن منع

(١) المائدة : ٤٨ — (٢) الأنبياء : ٢٥

الاجتهاد ، فقد منع حجة الله تعالى وأبطل مزيّة هذه الشريعة على غيرها ، وجعلها غير صالحة لكل الناس فى كل زمان . . .

فما أشد جناية هؤلاء الجهال على الإسلام .

* * *

يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . . » فمن هم أولئك اليهود والنصارى الذين نهينا عن موالاتهم ؟ .

إن السياق وحده هو الذى يحدد أوصاف هؤلاء ، والآيات التى تليت من قبل أو التى تتلى من بعد تشرح حقيقتهم .

وعند التأمل تظهر لنا ثلاث فئات . . .

الفئة الأولى تكره شريعة الإسلام ، وتجمح بها الكراهية جماحا شديدا . فهى تفضل عليها كل شرائع الجاهلية ! وأذكر أن مسيحيا عربيا سئل : إنكم تَدّعونَ مالقيصر لقيصر ، وتذعنون لأى حكم يضمن لكم شعائركم الدينية ، فلم لاترضون بشريعة محمد ـ وهو عربى منكم ـ وتتركون المسلمين يستعيدون أحكامهم السماوية التى سلبهم إياها الاستعمار الصليبى ؟؟ .

فكان جوابه : نحن نقبل تشريعا استراليا أو أمريكيا ، ولانقبل شريعة محمد .

إن المسلمين سيتطاولون فى ظل تشريعهم ، ولانحب ذلك !!

موقف هؤلاء الكتابيين واضح قديما وحديثا وفيهم نزلت الآيات : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله وَلاتتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون »[1] .

هذه فئة من الناس أخرجتها الضغائن عن وعيها ، وحرمتها الإنصاف ، فلا غضاضة فى النهى عن موالاتهم ، إنك قد تعدل مع من تكره ، ولكنك لاتستطيع محبته . . . !

الفئة الثانية من هذا الصنف هم المائلون بقلوبهم إلى أعدائنا ، وتخاف خيانتهم عندما تسنح فرصة !

إن المسلمين يشتبكون فى حروب مع أعدائهم ، وينبغى أن تكون جبهتهم الداخلية متصلة لاثغرة فيها ، فإذا وجُد مَنْ يتمنى لهم الخبال وينتظر لهم الهزيمة فالأمر صعب .

وقع هذا قديما وذكرته الآية الكريمة « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون

(١) المائدة : ٤٩ ، ٥٠

نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسرُّوا فى أنفسهم نادمين »[1] . .

إن دولة الإسلام الأولى كان فيها رعايا من أهل الذمة وعندما اشتبكت فى حرب مع الاستعمار الرومانىّ لم تفكر فى تجنيدهم حتى لاتحرج ضمائرهم ! !

فقد يؤذيهم أن يخاصموا إخوانهم فى العقيدة فيقتلون ويُقتلون . .

واكتفى الإسلام بإسهامهم المالى فى نفقات الدولة . . وأقل ماينتظره الإسلام وهو يحارب هذا الاستعمار الهاجم من الشمال ألا تكون هناك قلوب تتعاطف معه ، وتؤمل فى هزيمة المسلمين . .

الفئة الثالثة ممن نُهينَا عن موالاتهم هم الساخرون من شعائر الإسلام المستهزئون بالصلاة والأذان .

وقد وصفت الآية أحوالهم « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لايعقلون »[2] .

والواقع أنه من السفه السخرية من العبادات المقررة واتخاذ الأذان مادة للضحك !

أى صداقة ينتظرها من يفعل ذلك ؟ إلا صداقة خليع لايعرف ربّه ، ولايرقب ماعنده .

وهناك من يغضبون أشد غضب عند مايسمعون كلمات الأذان ، ويتمنون لو سكت قائلها . .

إن الإسلام أبعد دين عن الإكراه ، وأتباعه أبعد الناس عن كراهية الآخرين إذا كانت نفوسهم سهلة وسرائرهم نقية « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان »[3] .

ويمكن أن تقوم شركة تجارية بين مسلم وغير مسلم أساسها الأمانة والصدق .

ويمكن أن تتكون أسرة من مسلم وأخرى غير مسلمة على قاعدة من الودّ المتبادل والرحمة !

ويمكن أن تنشأ علاقات إنسانية حميمة بين أتباع أديان مختلفة بعيدا عن التظالم والغش والبغضاء .

لقد حدّد الإسلام المواضع التى أذن فيها للمؤمنين أن يغضبوا ويقاطعوا ، فلتختلف الأديان فتلك مشيئة الله « ولذلك خلقهم »[4] .

ولكننا أمة تحترم نفسها ، ومن حقها أن يحترمها الآخرون ، وأن يقيموا علائقهم معها على العدل والأدب ! فهل ذلك صعب ؟ .

---

(١) المائدة : ٥٢
(٢) المائدة : ٥٧ ، ٥٨
(٣) الرحمن : ٦٠
(٤) هود : ١١٩

إنه صعب على يهودى يظن البشر دونه بأصل الخلقة ! صعب على متعصّب يعتنق الأخطاء فى حرية ، ويضن على الآخرين أن يعتنقوا الصواب ويمُرُّوا بسلام !!

وذاك ماعنته الآية الشريفة « قل : ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل من قبل ، وأن أكثركم فاسقون »(١) .

والواقع أن مبدأ « الولاء والبراء » قائم على هذه الحقيقة ، ولا أثارة فيه لقطيعة ظالمة أو تعصب ذميم !

من حق أصحاب الإيمان ألا يستوحشوا به فى الدنيا ، بل ينبغى أن يألفهم ، ويلتفّ بهم أمثالهم فى الاعتقاد « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون »(٢) .

ومن شعائر الإسلام الحب فى الله والبغض فى الله ولكنه حب لا أثرة فيه وبغض لاظلم معه .

ومن خصائص الدين الحق أنه يتجاوز عن الخطأ العابر ويتشدد مع الشذوذ الفاجر .

وقد تدبرت موقف نبينا صلى الله عليه وسلم مع « ماعز » فوجدته يحاول ردَّه عن إقراره ، ومسامحته فى ظلمه لنفسه مادام قد تاب .

غير أن ماعزا أبى إلا تطهير نفسه بالموت فكان له ماأراد .

وكان عيسى عليه السلام يحاول مثل ذلك مع المرأة التى أتى بها اليهود لرجمها !

فالقدر ليس بالمرصاد لكل عاثر يريد الاجهاز عليه ، والأنبياء مصلحون لاجلادون .

غير أن الفرق واسع بين الخطأ العابر والخطيئة الفاجرة ، والفرق واسع بين زلّة قدم وتقليد يتبع .

وهو أوسع بين هفوة فرد وتشريع قائم .

إن الأنبياء جميعا ضد الجريمة إذا تحولت إلى عرف عام ونظام سائد .

والغريب أن أهل الكتاب قديما وحديثا تميزوا ببرود غريب أمام المعاصى . . .

حتى أمْستْ الحضارة الغربية مشحونة بصنوف الدَّنَس مع صمت مطبق من الكهنة المشاهدين !

ثم ألا يستحق التأمل الطويل أن ترى من هؤلاء من يكره الإسلام ويهادن الإلحاد ؟ ومن يعلن الصلاة من أجل مرضى الإيدز !

ولايكترث أقل اكتراث لضحايا الصهيونية والاستعمار .

---

(١) المائدة : ٥٩

(٢) المائدة : ٥٥ ، ٥٦

وقد تحدثت سورة المائدة فى نحو أربع صفحات عن تناقض هؤلاء القوم وعن ضرورة استنكار مايفعلون « وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يعملون! . لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يصنعون! »[1] .

ولن يكون القوم أهل دين إلا إذا بقيت صلتهم بالتعاليم السماوية محسوسة ، واحترموا مابقى لديهم من تعاليم التوراة والإنجيل ، وضموا إلى ذلك ماجاء به النبى الخاتم مصداق قوله تعالى : «قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ، وليزيدن كثيرا منهم ماأنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ، فلا تأسَ على القوم الكافرين»[2] .

إن الغيرة على محارم الله مطلوبة فى الأديان كلها ، والغيرة انفعال وتحديد مواقف وقياس مسافات .

إن المؤمنين يرون الفلاسفة الإلَهيين أدنى إلى الرشد من الفلاسفة الملاحدة ، ويرون أصحاب الأخلاق أقرب إلى الشرف من طلّاب اللذة . . .

ولاينقضى عجبى من أناس يسمعون صيحة لا إلَـه والحياة مادة ! وهم باردون جامدون .

فإذا صاح مُؤذنٌ : الله أكبر انقلبت سحنتُهم واربدَّتْ وجوههم لأن الصيحة الكريمة من أمارات الإسلام ، وهى عندنا من الباقيات الصالحات . . !!

وقد عاب القرآن الكريم على الحاخامات والكرادلة موت العاطفة الصحيحة فى دمائهم ، وجاءت الآيات « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه »[3] إلخ .

وتلا ذلك نهى عن موالاة العاصين واسترضائهم « ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون»[4] .

وهناك سنن نبوية لاحصر لها فى هذه الشئون .

* * *

---

(١) المائدة : ٦٢ ، ٦٣
(٢) المائدة : ٦٨
(٣) المائدة : ٧٨ ، ٧٩
(٤) المائدة : ٨١

فى تعنيف أهل الكتاب على مداهنة الرذائل ومجاملة أصحابها كان لابد من الحديث عن العقائد الأصلية وعن جدوى الاستمساك بها !

الناس عادة يسكتون على المعاصى فرارا من تبعات النصح ، ويسكتون على الظلمة ـ وربما تملقوهم ـ حرصا على الدنيا ومنافعها !

وكم يكلفُ قول الحق من متاعب! لكن المهم هو الثمرة الأخيرة .

وخيانة الحق قد تعقب فائدة سريعة ماتكاد تجىء حتى تفنى ويبقى ذل الخيانة وإثم التفريط!!

ومايظفر بالحياة الصحيحة والرضا النفسى والإلـهى إلا من أحب الله وأبغض لله ، ومن ثم قال الله تعالى : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . . »[1] .

ولاتحسبنّ هذا النصح خاصا باليهود والنصارى ، إن علماء الإسلام مطلوبون به قبل غيرهم لجسامة مايحملون من أمانات . .

ولاريب أن السلوك الراشد ينبثق من إيمان صحيح ولذلك عاد الحديث مرة أخرى إلى عقيدة التوحيد وضرورة تحريرها من الشوائب .

واليهود يعلنون إيمانا بالله الواحد ، فهل فكرتهم عن هذا الإلّه صحيحة ؟ .

وهل ينزهونه من كل نقص ؟ وينسبون إليه كل كمال .

وهل يرون أنفسهم بعض الناس الذين يتقدمون بالطاعة ويتخلفون بالمعصية ؟ .

كلا لقد صادروا عقيدة الألوهية لحساب جنسهم وأصبح الإلّـه حارسا لمزاعمهم ومنافعهم إنه إلّه خاص يرضيهم أكثر مما يرضونه !!

ومن هنا لعبوا بمواثيقه وعاشوا فى الدنيا عبثا على الشعوب !! « لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا ، كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون»[2] .

أما النصارى فالغموض فى إيمانهم شديد . والتناقض واضح . . !

وهم يقولون : ربنا يسوع المسيح ! ويقولون عن مريم : إنها أم الإلّـه !!

ويقولون كذلك إن الآب إلّـه أزلى وهو الذى أرسل ابنه للناس .

---

(١) المائدة : ٦٥ ، ٦٦ (٢) المائدة : ٧٠

ويقولون عن جبريل روح القدس : إنه إله . . ثم يقولون : إن الكل إلّه واحد .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة . وما من إله إلا إلّـه واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون لَيَـمَسنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم »[1] .

والنزاع المرير الذى يسود العالم الآن هو بين الإسلام الذى يصف الله بالوحدانية المطلقة ، ويعدُّ ماعداه فى الأرض والسموات ملكا له ، خاضعا لعز جلاله ومجده !! الملائكة والأنبياء والبشر كلهم يَجْثُون خاضعين للواحد القاهر . . . وبين مسيحية استحدثها الغلاة ، وعبدوا فيها ثلاثة ، وزعموا بعدئذ أن الثلاثة واحد !!

من أجل ذلك يتجه الخطاب الإلّهى لمحمد « قل : ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ولاتتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل »[2] .

ويظهر أن هذا النزاع سوف يبقى حتى قبيل الساعة ، إذ ينزل الله عبده عيسى ليحسمه بإعلانه عبوديته لله ، ومقاتلته من جعلوه لله ندًّا !!

والفكر النصرانى منقسم على نفسه انقساما واسعا ، وقد عرف العالم الحروب الدينية من خلال هذا الانقسام . وهى حروب ظلت عدة قرون سفكت فيها الدماء بغزارة ، ولم ينج الناس من غوائلها إلا بعد تجريد الكنيسة من سلطان الدولة .

ومع ذلك فقد اصطلحت المذاهب المعزْولة وتجمعت فى هذا العصر كى تكيد الإسلام !!

فاليهود يقتلون عرب فلسطين ، والهنادك والبوذيون يقتلون المسلمين فى جنوب آسيا .

والاستعماريون الجدد يقاتلون سائر المسلمين أو يشنّون عليهم غزوات ثقافية واقتصادية !

ونحن نتدبر بعمق هذه الآية الكريمة : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين»[3] .

إن التاريخ يروى لنا ماحدث فى عصر البعثة ، كان مشركو مكة ويهود المدينة أشد الناس بأسا فى عداوة الإسلام على حين كان المسلمون يؤملون الخير فى نصارى الحبشة والروم !

وقد صرحوا بأن هزيمة الفرس للروم مؤقتة ! وأن إخوانهم أهل الكتاب سوف يكسبون المعركة التى خسروها ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله !

---

(١) المائدة : ٧٣ (٢) المائدة : ٧٧ (٣) المائدة : ٨٢ ، ٨٣ .

ثم إنه جاءت وفود مسيحية إلى مكة والمدينة واستمعت إلى الرسول يتلو كتابه فأعلنت إيمانها وقالت : « إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين»[١] !

والواقع أن الإسلام ـ بعد انكسار السلطة الرومانية ـ ورث آسيا الصغرى كلها وشمال أفريقية كله ، فأضحت شعوب هذه المناطق مسلمة تدفع عن الإسلام وتعلى رايته .

وتركت مسيحيتها الأولى راضية مقتنعة !! والآية التى ذكرناها تتحدث عن قوم أعلنوا إيمانهم وقالوا : « ومالنا لانؤمن بالله وماجاءنا من الحق »!![٢]

لكن الذى حدث قديما عرض له ما وقفه ! ومنذ ألف عام وحروب صليبية طاحنة تُشَنُّ على المسلمين ، وتنتقص أرضهم ، وتهز كيانهم هزا . . !

وما يمكن أن يكون هؤلاء أقرب الناس إلى الذين آمنوا ، إن الآيات تصف مشاهد مضت ، فهل يجوز أن تتغير المشاهد؟ .

ربما ولاتزال جماهير فى أوربا وأمريكا تبحث عن الحق ، وترتاب فيما ورثت وما يصدُّها عن الدخول فى الإسلام إلا الحال الزَّرِيَّة التى عليها المسلمون .

فالمسلمون بلا شك صورة سيئة مُنفِّرةٌ عن دينهم . . !

وبعد هذا الاستعراض للعلاقة بين الإسلام وأهل الكتاب وردت آيات فى بناء الجماعة الإسلامية تنهى مثلا عن المادية والرهبانية « لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا»[٣] وكأنها تريد تجنيب المسلمين ما وقع للماضين .

ثم جاءت آيات حاسمة فى تحريم الخمور والأوربيون والأمريكيون يضعونها على كل مائدة ، فهى كالماء أو بديل له !!

كما وردت تشريعات فى حماية المشاعر المقدسة ، ورفض الجدل الدينى واللغط الذى يدور بين المتدينين . . وضرورة التمسك بالكتاب والسنة فإن بعض الناس«إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لوكان آباؤهم لايعلمون شيئا ولايهتدون»؟[٤]

والسورة تسمَّى سورة العقود كما ذكرنا من قبل فلا غرابة إذا تضمنت أنواعا من الإلزام . .

على أنها ختمت بأمرين : أولهما عودة إلى مخاطبة النصارى فى أن يخلصوا إيمانهم ، ويُنقُّوا التوحيد المحض من الأوهام التى لبَسُوهَا به .

---

(١) القصص : ٥٣ (٢) المائدة : ٨٤ (٣) المائدة : ٨٧

(٤) المائدة : ١٠٤

وتضمن الخطاب مساءلة لعيسى ابن مريم « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله» ؟[1]

وطبيعى أن يبرأ عيسى من صنيع قومه من بعده « ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم» [2] والحق أنه لا إله إلا الله ، وأن ماعداه عبد له ولكن الكنائس المختلفة تمارى فى ذلك مراء شديد ، بل هى تنتهز فرصة ضعف المسلمين لتمحو الحق المبين !

أما الأمر الذى ختمت به السورة فهو تذكير القارئين بكل ماحوت من عقود وعهود ، هل حفظوها ووفوا بها وقاموا عليها ؟ .

. . ليست بين بشرٍ مَّا وبين الله علاقة خاصة ، وسيجىء يوم يحشر الناس فيه إلى حساب دقيق .

ويقال : « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم»[3]

هل لأحد مع الله ملك ؟ كلا « لله ملك السموات والأرض ومافيهن . وهو على كل شىء قدير»[4] هذه سورة المائدة ، أو سورة العقود ، وهى من أواخر مانزل من القرآن الكريم . . . متصلا بالتشريع . . .

* * *

(١) المائدة : ١١٦

(٢) المائدة : ١١٧

(٣) المائدة : ١١٩

(٤) المائدة ١٢٠

سورة الأنعام

سورة الأنعام هى السورة المكية الأولى فى السبع الطوال التى بدأ بها المصحف الشريف .

والقرآن النازل كان يخاطب أول مايخاطب الوثنيين الغافلين عن الله الجاحدين لوحدانيته .

وهم قوم كانوا يتعصبون لأصنامهم ويجمدون على مواريثهم ويقاومون بعنف كل صيحة للتحرر العقلىّ .

بيد أن القرآن الكريم اعتمد على إطالة الإقناع ومضاعفة الأدلة والحديث عن الله سبحانه حديثا يكشف عن عظمته ، وينبه إلى آياته فى الأنفس والآفاق ، ، ويستثير مايكمن فى النفوس من خشية وإنابة ، أى يستثير بقايا الفطرة التى غَطَّتْ عليها ظلمات الجاهلية .

وتمتاز سورة الأنعام بخاصتين شاعتا فيها هما كثرة التقريرات والتلقينات لاستنقاذ العقل العربىّ مما تردَّى فيه .

والتقرير إرسال حكم واضح محدد فى شأن من شئون الألوهية .

ونلحظ ذلك عند أول آية تقرؤها « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور . . . . »[1] .

فالله خالق العالم ومضىء شموسه وأقماره .

ومع عظمة ماصنع وانفراده به فإن بعض الجهلة يسوِّى به مَنْ لايحسن صنع شىء !! كيف تتم هذه التسوية ؟ .

وعلى أية حال فالناس على ظهر الأرض لهم آجال محدودة ينتهى كل فرد إليها ثم يعود كل امرئ إلى بارئه .

وللإنسانية جمعاء أجل تنتهى إليه هو الساعة الكبرى . .

ثم يحكم عالم السر والعلن بين عباده على الطريقة التى عاشوا بها فى الدنيا .

وتقرير الحمد لله فى الأولى والآخرة يتبعه تقرير آخر « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون»[2] .

---

(١) الأنعام : ١ — (٢) الأنعام : ٣

ويكثر فى هذه السورة التحدث عن الله بضمير الغائب ، واسم الموصول المفرد مثل « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر . . »[1] « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . . . »[2] .

والحق أن ضمير الغيبة هنا يجعل المستمع فى حالة حضور ، كأن الله يخاطبه ! ويضع يده على مظاهر عظمته فلا يملك ، إلا الإذعان .

ولاتحسبن هذا الأسلوب يؤثر فى المشركين وحدهم ، كلا . . إن أهل الكتاب يرون فيه جديدا من المعرفة الحية لايرونها فى كتبهم مما يترك فى سرائرهم أعظم الآثار ! !

إنه لم ينزل كتاب من السماء يتحدث عن الله بمثل هذه اللهجة من الصدق ، وهذه الدقة من الوعى .

فهو يخلع الناس خلعا عن التقاليد التى ألفوها ، ويصدع الغفلات التى سادت بينهم . ! !

وإلى جانب التقريرات التى ذكرنا نماذج لها نجد التلقينات المتتابعة فى هذه السورة ، والتى يقول الله فيها لنبيه وهو يجادل المشركين : قل لهم كذا قل لهم كذا .

ربما تكرر هل اللفظ مرتين فى آية واحدة « قل : لمن ما فى السموات والأرض ؟ قل : لله ، كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه . . »[3] .

وربما تكرر أربع مرات فى آية واحدة مثل « قل : أى شىء أكبر شهادة قل : الله شهيد بينى وبينكم ! وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ! أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد ! قل : إنما هو إله واحد ، وإننى برىء مما تشركون »[4] .

أرأيت هذا الحوار النابض بالحق واليقين ؟ .

أرأيت كلمة قل يسعف الله بها نبيه ليردَّ على مخالفيه؟ .

لقد تكررت هذه الكلمة فى سورة الأنعام أربعا وأربعين مرة . . ! !

وظاهر أن السورة الكريمة نزلت فى ذروة المعركة المحتدمة بين الحق والباطل .

والمشهور من أقوال العلماء أنها نزلت ـ على طولها ـ جملة واحدة .

وقد رويت أقوال بأن آيات منها نزلت فى المدينة المنورة ، بعضها باطل ، وبعضها ضعيف .

وعلتها أن بعض القراء يحسب أن كل مايتصل بأهل الكتاب لاعلاقة له بمكة ! ! وهذا خطأ .

---

(١) الأنعام : ٩٧
(٢) الأنعام : ٩٨
(٣) الأنعام : ١٢
(٤) الأنعام : ١٩

كما أن البعض تصوَّر أن فرض الزكاة كان فى المدينة والحق أنه بدأ فى مكة وفصلت الأنصبة فى المدينة .

والسورة نزلت فى نفس واحد واحتَفَّ لنزولها عشرات الألوف من الملائكة .

ووعاها الرسول كلها ساعة نزلت فقد كان ذهنه ألمع من البرق ! وكانت ذاكرته أدقّ من الأشرطة التى تتم عليها التسجيلات اليوم .

فلما استوعبها استدعى الحَفَظَة والكَتَبَةَ وأملى عليهم ماجاء من عند الله . . . . !!

ونحب أن نستعرض التقارير والتلقينات التى حوتها السورة وشتى القضايا التى تناولتها . .

من أول ماذكرته السورة من مقررات مصير الظَّلَمَة مهما طال عليهم الأمد .

إن تكذيبهم للأنبياء يأخذ مراحل متتابعة تبدأ بالإعْراض ، ثم بالتكذيب المتجهِّم ، ثم بالاستهزاء المتواصل ، ثم بالعدوان الآثم !

والقدر الحكيم يطاولهم فى هذه الأثناء ابتلاء للمؤمنين ، والكافرين جميعا .

وهذه طبيعة الحياة الدنيا ، ولكن عقبى الصراع وخيمة على الكافرين .

ومن ثم يقول الله لكفار العرب « ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين »[1] .

هذه مصاير الحضارات عندما تتفسخُ ، ومصاير الأمم عندما تستكبر وتطغى .

تبقى على ظهر الأرض حينا ثم تختفى تحتها مخلية المكان لآخرين !!

ونسأل : هل هذا شأن الكفر المحض ؟ أم القانون عام يشمل مع الكافرين أمما أخرى خلطت الحق بالباطل والهوى بالهدى ؟ أو بعبارة أخرى : هل يستوى الذين أعرضوا عن الإيمان كله ، والذين لم يكسبوا فى إيمانهم خيرا ؟؟ .

الظاهر من الآيات الواردة فى السورة تشرح هذه القضية أن الكل سواء .

وتدبر قوله تعالى يشرح أسلوب أخذه للأمم : « ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذجاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون »[2] .

إن الله مكر بهؤلاء ، وبدا كأنه أهملهم ! وهيهات فماكادوا يستمرئون شرورهم حتى أخذهم بغتة « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين »[3] .

---

(١) الأنعام : ٦ (٢) الأنعام : ٤٢ ، ٤٣ (٣) الأنعام : ٤٥

وفى استقرائى لأحوال الأمة الإسلامية على امتداد تاريخها وجدت هذه السنة الإلّهية تتكرر ، وأن ماهُدد به المشركون ظهر فى الأبناء المنحرفين .

« قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون . وكذب به قومك ـ وهو الحق ـ قل لست عليكم بوكيل . لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون »[١] !!

إن الحليم قد تطول أناته ، ولكنه عندما يضرب يوجع « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد »[٢] .

* * *

عندما تنصح إنسانا فتقول له : احترام عقلك ، واستند إليه فى أحكامك ! فيقول لك : هات معجزة تؤيد هذه النصيحة ! ماذا تصنع له ؟ .

إنك تلفته إلى خطأ فيه فيلفتك إلى قصور عندك !!

إن المعجزات لا تجدى مع عقل بليد وفكر غبى ، وآفة المشركين القدامى والجدد أنهم محبوسون وراء قصورهم العقلى .

ولذلك يقول الله سبحانه كاشفا عن عدم جدوى المعجزات مع هؤلاء : « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين[٣] » إنهم صرعى فكرة واحدة استبدَّتْ بهم فلا يقبلون غيرها .

وقد زعموا أن الرسول لو صحبه ملك يؤيده فهم مؤمنون به !! « وقالوا : لولا أنزل عليه ملك . . ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون »[٤] .

والمعنى أنهم ـ بعد نزول الملك ـ سوف يَبْقوْن على كفرهم ، وعندئذ يحل بهم عذاب الاستئصال .

فإن غيرهم طلب المعجزات ثم كفر بعد ماجاءته قالوا « فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ! . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ، أفهم يؤمنون »؟[٥] .

---

(١) الأنعام : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ (٢) هود : ١٠٢ (٣) الأنعام : ٧
(٤) الأنعام : ٨ (٥) الأنبياء : ٥ ، ٦

ثم بين الله أن رؤية الملك مستحيلة على البشر ، فإن أبصار الناس ترى أجساما معينة على مسافات معينة ومن هنا فهى لاترى الجن ولا الملائكة .

وعندما يتشكل هؤلاء وأولئك فى صور مادية فسوف تبقى الريبة لدى رؤيتهم .

ولذلك قال : « ولوجعلناه ملكا لجعلناه رجلا ولَلَبسنا عليهم مايلبسون»![1] .

على أن مشركى العرب قاوموا الإسلام ، وكذبوا رسوله ، وسخروا منه ، ولم يتحركوا عن موقفهم، فكانت وصاة الله لنبيه أن يصبر ، ويبقى على منهجه فى الدعوة يحاول تحريك العقول الجامدة .

« ولقد استهزئ برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزئون »[2] .

ولكن النبى عليه الصلاة والسلام خامره الحزن وأثر فيه ! إن الرجل الشريف يؤلمه التكذيب والاستهزاء ، وطالما تاق إلى تدخل سماوى يحسم الموقف !!

وهنا يقول الله له : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »[3]

إن جريمتهم فى جنب من أرسلك أكبر من تكذيبهم لك ، إن محاربتهم لك ترجمة لمحاربتهم لربك وجحدهم لآياته ، فاصبر على مايقولون « ولقد كذِّبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذِّبوا، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا . ولامبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين»[4] .

ولكن نفس النبى تتوق إلى خارق يخرس ألسنتهم فكان الرد الأعلى « وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية »[5]. . .

أى فافعل ، ولن تستطيع فإن الأمر بيد الله الذى يملك مقادير الأمم ، وإليه يرجع الأمر كله ، « ولوشاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين»[6] .

أحسب أشد الناس حمقا من يرتاب فى أن القرآن من السماء ، وأنه نزل على محمد ولادَخْل لمحمد فيه .

إن الله يحكم عباده بسُنَنٍ ثابتة لايغيرها أحد ، أنبياؤه مبتلَوْن بأعباء الدعوة ، ومعاناة الجماهير التائهة ، ومحاربة الأعراف والتقاليد السيئة .

وللجماهير فى غياب الحرية العقلية أمد محدود عند الله تسرح فيه وتمرح حتى إذا استوفتْ الأجل الذى كان من الممكن أن تعقل فيه قال القدر كلمته!!

---

١) الأنعام : ٩ (٢) الأنعام : ١٠ (١) الأنعام : ٣٣

(٢) الأنعام : ٣٤ (٣) الأنعام : ٣٥ (٤)الأنعام : ٣٥

وقد أفهم الله نبيه أن آفة هؤلاء من عقولهم التى جعلتهم يُنادون من مكان بعيد ، إنهم صُمٌّ عن سماع الحق « إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون »[١]

ويعود القوم إلى طلبهم الأول « وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لايعلمون»[٢] .

وأنا أعجب : إذا كان النظام الكونى لايدل على الله فهل خرق هذا النظام أحيانا هو الذى يدلّ على الله ؟ .

إن القمر يدور حول الأرض من دهور خلت ، لايتباطأ ولا يعْوَجّ .
فهل هذا الاطّراد لايشهد للخالق القدير ، ويشهد له انشقاق القمر بضع دقائق ؟ .

هل السراج الوهاج الذى لايخبو وَهَجُه على اختلاف الليل والنهار لايدل على الله العظيم ؟ ويدل عليه تأخر الغروب بضع دقائق ليوشع غلام موسى ؟ .

إننى أشهد عالم الحيوان والإنسان والحشرات الزاحفة والطائرة فأدهش لسُنَن الله فى حياتها وبقائها وضمان الرزق لما دقّ وجلّ منها .

ولعل مانذكر هو السر فى سوق هذه الآية لمن يطلبون خوارق العادات من صاحب الرسالة العظمى ، أعنى قوله تعالى :

«وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، مافرطنا فى الكتاب من شىء . ثم إلى ربهم يحشرون»[٣] .

ولقد استوقفنى منظر العصفورة الأم . وهى تطوف بين الحقول ثم ترجع بالغذاء فى جوفها ، ثم تفتح منقار وليدها فى العُشّ لتطعمه وتسقيه ! !

صنع الله الذى أتقن كل شىء ومع ذلك يجهل المشركون الله الواحد ، ويعكفون على حجر أصم ، ويقولون لمحمد : هات لنا خارقا من خوارق العادات حتى نؤمن بك « والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات . من يشأ الله يضلله . ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » ! ![٤]

والغريب أنهم يحلفون أنهم سوف يؤمنون عندما يجىء هذا الخارق المطلوب « وأقسموا بالله جهد أيمانهم : لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل : إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون»[٥] .

هيهات ! إن الأعمى لايبصر مادام مصمما على إغلاق أجفانه . .

---

(١) الأنعام : ٣٦ (٢) الأنعام : ٣٧ (٣) الأنعام : ٣٨
(٤) الأنعام : ٣٩ (٥) الأنعام : ١٠٩ ، ١١٠

ويذهب الخلل بالنفس الوثنية بعيدا عندما تطلب من النبى أن يطرد من حوله الضعفاء الذين آمنوا به حتى يخلو المجلس لهم وحدهم!.

ولكن الله يقول لنبيه : « ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ يريدون وجهه . . »[1] بل يأمره أن يسوق البشرى إلى هؤلاء المؤمنين بأن الله معهم بمغفرته ورضاه .

« وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم»[2] . ويمضى الرسول الكريم على خطه القويم يدعو إلى الله على بصيرة ويشرح المقررات العلمية التى أوحيت إليه .

ويرد ـ بالإرشاد الإلٰهى ـ الشبهات التى قد تثار حوله ، وإن المرء ليشعر بالرقة والأسى ، لهذا النبى الصبور الجلْد وهو يواجه المشركين المتعنتين بهذا الخطاب .

«قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، قل لاأتبع أهواءكم قد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين ! . قل إنى على بيّنة من ربِّى وكذبتم به ماعندى ما تستعجلون به . إن الحكم إلا لله يقصُّ الحق وهو خير الفاصلين . . »[3] .

تدَّبر هذه المناشدة الجليلة ، إنه يريد من وضوح الإيمان فى نفسه أن يسكب فى قلوبهم إيمانا يهديهم إلى الصراط المستقيم بيد أن القوم يتعجلون العقاب .

«قل لو أن عندى ماتستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين»[4] .

وهكذا بالتلقين الهادى والتعليم المستمر يؤدى صاحب الرسالة رسالته !

* * *

بعد تلاوة متأنية لسورة الأنعام ، ومتابعة آيات التقرير والتلقين وهى تعرض أمجاد الألوهية وتقمع الشبهات البشرية تساءلت : ماذا تفعل الخوارق فى الدلا لة على الله أكثر من ذلك ؟ .

بل قلت : إن الخوارق الواقعة والمقترحة لو وضعت فى كفة ، ووضعت هذه السورة فى الكفة الأخرى ، لكانت فى الدلالة على الله أرجح ، وفى بيانها عن عظمة الله أفصح .

---

(١) الأنعام : ٥٢
(٢) الأنعام : ٥٤
(٣) الأنعام : ٥٦ ، ٥٧
(٤) الأنعام : ٥٨

واقرأ بتأمل هذه الآية « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ، ويعلم مافى البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين»[١] .

إن الغيوب بالنسبة إلينا عماء ، وهى عند رب العالمين رؤية شهود .

وأغلب الموجودات بالنسبة إلينا غيوب محجوبة !

إنك قد ترى إنسانا وتحادثه ، ماذا تعلم عنه ؟ قد ترى وجهه وملابسه ولكنك لاترى أفكاره وأحشاءه .

أما رب العالمين فهو يراه ظاهرا وباطنا على سواء ، وهو فى الوقت نفسه يرى خمسة مليارات من البشر معه رؤية شمول !

بل إن هذه الرؤية الموقوتة جزء ضئيل من رؤيته فى أطوار حياته كلها بين المهد واللحد « إنه بكل شىء بصير » .

مفاتيح الغيوب كلها عنده ، وكما يعلم البشر على هذا النحو المحيط يعلم مافى البر والبحر !

كنت أرمق التلفاز فى بيتى فرأيت منظرا فى أحد المحيطات ، والموج ثائر يلعب بباخرة جبارة يكاد يوردها الأعماق .

قلت : إن الله هنا وهناك يسمع ويرى ! يسمع ويرى فقط ؟ بل يصنع ويدبر ويحيى ويميت ! كل مافى البر والبحر طوع مشيئته .

ومضيت مع الآية الوصَّافة لأمجاد الله ! مَنْ مع الحبَّة فى ظلمة التراب يخلق منها الزروع والثمار ، ويطعمنا الجنى الطيب ؟ .

مَنْ مع كل شجرة نابتة فى أقطار الأرض يعلم عدد مايسقط منها من ورق « وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين»[٢]

إنه ليس علما نظريا فقط ، إنه مسطورٌ فى كتبه « وكل صغير وكبير مستطر»[٣]

وبعد هذا الإحصاء الكشّاف يجىء عرض للحياة الإنسانية على ظهر الأرض ، وأعمال الناس كلهم بين شقىٍّ وسعيد « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمّى . . »[٤]

إننا نستغرق فى النوم بعد كدح النهار ، وأرواحنا على الحالين بيده يأخذها ثم يردّها حتى نستوفى الأجل المكتوب لنا فى هذه الدنيا .

---

(١) الأنعام : ٥٩
(٢) الأنعام : ٥٩
(٣) القمر : ٥٣
(٤) الأنعام : ٦٠

فإذا استوفيناه أخذ أرواحنا فلم يردَّها ثانية ، لقد حان وقت الجزاء على ماقدمنا « ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون »[1]

واقرأ بعد ذلك آية من آيات الجلال ، تعقبها آية من آيات الجمال .

أما الأولى فقوله « وهو القاهر فوق عباده . . . »[2] إننا مسيَّرون فى أغلب ما نعانى ونسعى . لاخيرة لنا فى مكان الميلاد ولا زمانه .

لاخيرة لنا فى قيمة المواهب التى نُزَوَّد بها ولاخطّ الحياة التى نسلكها !

حتى الأنبياء فيهم شموس ، وفيهم أقمار متفاوتة الأحجام .

بيد أن كل امرئ محاسب على قدر ما أوتى ، مُساءل فى حدود وَضْعه «حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين»[3] .

أما آية الجمال التى تعقب هذا السرد المخوف الحاسم فهى « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرُّعا وخفية ؟ لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين !! . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب . . . ثم أنتم تشركون »[4]

إن الأسلوب القرآنى يقلِّب بين الرغبة والرهبة والخوف والرجاء حتى لانطيش أو نطغى .

ليت شعرى : ماذا أستفيد من خارق للعادة يقلب الحجر ذهبا !! ماذا يضىء عقلى ويرفع مستواى ؟ .

إن هذه المعجزة القرآنية أجدى وأهدى . . .

ومن أجل ذلك كلّف المسلمون باحتقار المجالس اللاغية ضد القرآن الكريم ، وعدم الاكتراث لما يدور فيها ، وهجرها وهجر أصحابها « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين . . . . »[5]

وتكرر الأمر بهذا الهجر فى قوله تعالى بعد ذلك « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا . . . »[6] إنه يتركهم بعد أن تم تبليغهم .

ولايزال هذا التبليغ قائما ، فالإعراض عنهم تَرفّع عن المشاركة فى اللغو ، والخوض فى العبث .

وهؤلاء المغرورون الجهال سوف يستيقظون على الدواهى التى تصيبهم بما يصنعون . .

---

(١) الأنعام : ٦٠ (٢) الأنعام : ٦١ (٣) الأنعام : ٦١، ٦٢
(٤) الأنعام : ٦٣ ، ٦٤ (٥) الأنعام : ٦٨ (٦) الأنعام : ٧٠

وهنا يجىء تلقين آخر للرسول الكريم ، فيه توبيخ للمشركين مقرون بالأسى على مستقبلهم الضائع برغم النصائح الحارة .

« قل أندعوا من دون الله مالاينفعنا ولايضرّنا ونردّ على أعقابنا بعد إذْ هدانا الله ؟ كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى : ائتنا . . . »[1] .

انظر صدق العاطفة فى تصوير موقف أولئك الحائرين البائسين وجهد الرسول وصحبه فى هدايتهم ، وعنادهم القاتل بعد الإخلاص المبذول فى استنقاذهم . . .

« قل : إن هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين »[2]

ويترك القرآن الكريم هذا الحاضر المعقد ، ويعود بالناس قرونا إلى الوراء ، فيذكر قصة إبراهيم مع عبّاد الكواكب ، وكيف حاول اقتيادهم إلى الله الواحد !

لقد ترخّص فى مخاطبتهم وتنزّل إلى عقولهم ، فنظر إلى نجم ساطع ـ لعله المشترى أو الزهرة ـ ثم قال : هذا ربى كما تقولون ، لكنه غاب بعد ظهور !

ثم نظر إلى القمر قائلا : هذا ربى كما تزعمون ! لكنه أيضا اختفى .

ثم نظر إلى الشمس قائلا : هذا ربى ـ فى زعمكم ـ هذا أكبر ، لكن الشمس غربت وأظلم الكون . .

إن الإلّه لايغيب عن ملكوته فمن يديره بعده ؟؟ .

إن الأرض التى تسبح بنا فى الفضاء لوغاب عنها ربُّها لحظة لطغى الماء ـ وهو ثلاثة أرباع مساحتها ـ على اليابسة فلم يبق حىّ على ظهرها .

إن زمام الوجود بين أصابع القدرة لو اضطرب قليلا لهلكت المشارق والمغارب ، بل لغاب كل شىء فى ظلمات العدم المحض !!

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده »[3]

وليس يُتصوَّر فى جانب الاله الحق أنه يأفل ، أو يختفى لحظة أو لحظات ، إنه قيُّوم تَسْتَنِدُ ديمومة الوجود إلى وجوده .

إنه القائم على كل نفس بما كسبت ، إنه قيّم السموات والأرض ومن فيهن . . .

إن أسلوب إبراهيم عليه السلام فى التعريف بالله الواحد نقله القرآن الكريم إلى عرب الجاهلية مختوما بهذه النتيجة « إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين»[4] .

(١) الأنعام : ٧١
(٢) الأنعام : ٧١
(٣) فاطر : ٤١
(٤) الأنعام : ٧٩

فهل يعى ذلك المشركون الذين يخاطبهم خاتم الأنبياء بالمنطق نفسه ؟ إنه منطق معقول منصف !

وتتفاوت درجات الدعاة إلى الله بمدى براعتهم فى التعريف به واقتياد الناس إليه ، ولذلك يقول جل شأنه « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء . إن ربك حكيم عليم »[1] .

* * *

جذور الإسلام ضاربة فى التاريخ القديم ، إن الدين الذى بعث محمد به ليس فكرا جديدا ظهر فى العصور الوسيطة ، إنه فكر الأنبياء كلهم حول إله واحد يجب أن نعرفه معرفة صحيحة وأن نسمع ونطيع لما يأمر به .

والقرآن الكريم يهشّ لأسماء الأنبياء جميعا ، ويؤكد أن أسرتهم الطاهرة ماكانت تُدنْدن إلا حول هذه الحقيقة .

الله حق ! وهو واحد ! وعلينا أن نسلم وجوهنا إليه . . !!

قبل إبراهيم كان نوح عليه السلام يقول : « وأمرت أن أكون من المسلمين»[2]

وفى هذه السورة ذكر الحقُّ جهاد إبراهيم الخليل فى تعريف الناس بالله تبارك اسمه ، ثم ذكر أسماء سبعة عشر نبيا معه قاموا جميعا بالدعوة إلى الله .

« ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين»[3] .

وقد صدق الله وعده ، فإن الجيل الكافر بمكة انقرض وتلاشى وآمن سائر العرب به بعد كفاح لم يطل أمده .

ثم دخل النصارى فى وادى النيل والشمال الإفريقى وآسيا الصغرى ، دخلوا فى الإسلام وكانوا قوام الأمة التى تحمل دعوته إلى يوم الناس هذا .

---

(١) الأنعام : ٨٣ (٢) يونس : ٧٢ (٣) الأنعام : ٨٧ـ٨٩

وتوكيدا لأن الإسلام امتداد للماضى وترديد لأصوات النبوات الأولى يقول الله لنبيه : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين»[(١)]

إن أتباع محمد هم الورثة الحقيقيون لنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وهم حملة الوحى الصحيح ، وهم الذين يخاصمون الشرك والعصيان ، ويقومون ، ويقيمون الناس معهم على التوحيد والتسليم لرب العالمين .

الكفر قديما وحديثا هو الجهل بالله وعصيان أمره .

والدين قديما وحديثا هو حسن معرفة الله وإخلاص الطاعة له وذلك ما انفردنا نحن المسلمين الآن به !!

وفى الدنيا من ينكر أن لله وحيا ، وليس ذاك بمستغرب على من ينكر أن لله وجودا . . !!

فعل ذلك الوثنيون قديما ويفعله الآن العلمانيون والماديون من مختلف النحل . .

ورب العالمين أكرم بعباده من أن يدعهم حيارى لاينزل عليهم هدى ينير لهم الطريق ، أو يرسل إليهم من يأخذ بنواصيهم إلى الخير . . « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء . . . »[(٢)]

والجميل فى رد القرآن على هؤلاء أن يتساءل « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس »[(٣)]؟

إن صاحب القرآن لايذكر نفسه هنا ، وإنما يذكر كتاب موسى وما أودع فيه من نور وهدى !!

وأى عجب فى هذا ؟ إن الإسلام كما أوضحنا إيمان بجميع الرسل وجميع الكتب .

إنه يمثل الحقيقة من أزل الدنيا إلى أبدها ، وعيب أهل الكتاب أنهم ماأنصفوا الوحى النازل عليهم .

لقد أضاعوا بعضا وأخفوا بعضا وعصَوْا بعضا وعاشوا بعد ذلك يصدّون عن سبيل الله ويحاربون النبىَّ الخاتم بحقد وضراوة !!

لقد جعلوا التوراة قراطيس يَبْدو منها القليل ويخفى الكثير . .

وفى القراءة الشائعة بيننا يقول الله لليهود « قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا»[(٤)]

وفى قراءات أخرى تحدث عنهم بضمير الغيبة « يبدونها ويخفون كثيرا » وأيًّا ماكان الأمر فاليهود المعنيُّون .

---

(١) الأنعام : ٩٠

(٢) الأنعام : ٩١

(٣) الأنعام : ٩١

(٤) الأنعام : ٩١ .

أما جملة و«عُلِّمتُمْ مالم تعلموا أنتم ولاآباؤكم » فهى للعرب خاصة . اختارهم الله ليكونوا الأمة الوسط فهل قدَّروا هذه النعمة ؟ وارتفعوا إلى مستواها ؟

إن الكتب التى تنتسب إلى السماء موجودة بين أيدى القراء يستطيعون الاطلاع عليها واستقصاء مافيها ، وأنا أريد أن ينظر الناس إلى ماحوت ومعهم عقولهم ، فإن فاقد عقله لاخير فيه ولاوزن لحكمه :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم　　　أدنى إلى شـرف من الإنسـان

إننى بعقلى أدركت أن للكون سيِّداً أبدعه ودبّر أمره

وأيقنت أن هذا السيد واحد لا اثنان ولا ثلاثة .

وأنه أمر بالعدل والإحسان ونهى عن الجور والعصيان .

وأنه سوف يسترجع الناس بعد هذه الحياة ليحاسبهم على الطريقة التى عاشوا بها فى دنياهم . . !

والسؤال : أىّ الكتب السماوية أنصف هذه الحقائق وجَلاَّها ؟ .

وأيّها كان أعلى صوتا وأصدق نبرة فى توحيد الله والتذكير بلقائه ؟ .

وأيها كان أقدر على تزكية النفوس ، وفطامها عن الشرور ؟ .

وإلى أن يصل المنصفون إلى الحكم الذى يروْنه نُذكِّر بكلمات القرآن فى هذا المجال :

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أو قال : أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء ، ومن قال سأُنْزل مثل ما أنزل الله . . . »؟؟[1]

وبعد هذا التساؤل المتتابع يشرح القرآن أجْزية الظالمين منذ بدْء مفارقتهم للحياة إلى أن يوقفوا للحساب الأخير « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون»!![2] .

أهذه لهجة كاذب على الله ؟ أهذا وحى مفتعل ؟ ألا شاهت الوجوه !!

وبعد هذه الوخزة الموجعة لأصحاب الأفئدة المغلقة يعود القرآن الكريم إلى سرد الأمجاد الإلهَية فى صورة تقارير حاسمة!!

أرأيت إلى الأرض تهتزّ زرعا والحقول تكسو الأرجاء بخضرتها ؟ .

أرأيت إلى النخيل تتدلى شماريخ البلح تحت سعفها ؟ .

---

(١) الأنعام : ٩٣　　(٢) الأنعام : ٩٣

من الذى ملأ السنابل بالحبوب ، وَدَلّى الطلع النضيد على صدور النخل ؟؟ .

« إن الله فالق الحب و النوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحىّ ذلكم الله فأنّى تؤفكون»[١] .

وكما يقع ذلك على التراب يقع مثله فى الفضاء الرحب « فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم »[٢] .

وتمضى الآيات القرآنية فى وصف الآيات الكونية واستخلاص الدلائل منها على عظمة الله وإبداعه ، وعلى أنه وحده الجدير بالإعظام والعبادة ، فمن كان له عقل وَعَى ، ومن فَقَدَ عقله هوى .

« قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ»[٣] ماذا يطلبه عُشّاق المعجزات الحسِّية بعد هذا البيان المشرق ؟ .

إن جهود المرسلين على امتداد السنين لاتنشد إلا هذا الإيمان العاقل .

ولذلك يجىء على لسان الرسول الخاتم هذا القول : « أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا »؟[٤] .

إن الراسخين فى العلم من أهل الكتاب الأولين يعرفون عظمة القرآن وصدق صاحبه « والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين »!![٥]

* * *

فى ربط الأمة بكتابها يقول الله تعالى فى هذه السورة : « اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين »[٦] .

ويقول : « وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون»[٧] .

ويقول مبينا البلد الذى تنطلق منه الدعوة العالمية « وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به . . . . »[٨].

---

(١) الأنعام : ٩٥ (٢) الأنعام : ٩٦ (٣) الأنعام : ١٠٤
(٤) الأنعام : ١١٤ (٥) الأنعام : ١١٤ (٦) الأنعام : ١٠٦
(٧) الأنعام : ١٢٦ (٨) الأنعام : ٩٢

وكانت الرسالات الأخيرة فى بنى إسرائيل بعد هلاك العرب العاربة ، ورفضهم لرسالات هود وصالح وشعيب وغيرهم . . ثم عادت رسالة السماء إلى العرب مرة أخرى وفى ذلك يقول الله تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون»[1] .

فهل يعرف العرب وظيفتهم العالمية بعد نزول القرآن الكريم .

والحساب الإلَهى على الجهد البشرى المبذول فلا جبر ولا قسر « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون »[2] .

ولكن البشر مجادلون بطبعهم ، يسيئون الفعل ثم يتملّصون منه بزعم أن الله شاء ذلك وساقهم إليه وهذا كذب :

« سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولاحرمنا من شىء !! كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » . [3]

وقبل ذلك بيَّن سبحانه أن من قَبِلَ الإيمان شرح الله به صدره ويكمل هدايته ، وإلا ضيّق عليه الآفاق وتركه فى شر حال .

والآية الدالّة على هذا مفتاح فهمها فى الجملة الأخيرة منها « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون» .

فمن رفض الإيمان لم يشرح الله له صدرا ، ولم يسق له هَدْيا ، وإنما يشرح صدر من انقاد للدعوة وتهيأ لإجابتها . .

وقد شاء العزيز الغنىُّ أن يصوغ العبارة على هذا النحو حتى يقف الناس عند حدود العبودية الفقيرة فقال « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلة يجعل صدره ضيقاً حرجا كأنما يصَّعَّد فى السماء»[4] .

فليس المراد أن المشيئة العليا سابقة على الإيمان أو الكفر ، وإلا ما قال بعد ذلك « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون »[5] .

إن كل امرئ سيوقف للحساب ويقال له « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »[6] فهل يقال ذلك لمغلوب على أمره ؟ .

---

(١) الأنعام : ١٥٥ (٢) الأنعام : ١٣١ (٣) الأنعام : ١٤٨
(٤) الأنعام : ١٢٥ (٥) الأنعام : ١٢٥ (٦) الإسراء : ١٤

والناس مع الإيمان الذى طولبوا به مكلفون بطاعة الله فيما شرع من حلال وحرام ، فليس الإيمان دعوى مصحوبة بفوضى .

وقد بينت هذه السورة أن الجاهليين اخترعوا عبادات ماأنزل الله من سلطان وشرعوا يتحاكمون إليها ، فتركوا الوحى وتبعوا البدع وجادلوا بالباطل .

وقد حذر الله المؤمنين من هذا العبث « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون»[(١)] وقال « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضلَّ الناس بغير علم إن الله لايهدى القوم الظالمين»[(٢)] .

وقد لاحظت أن المتدينين فى بيئات شتى يتواضعون على أمور معينة يجعلونها مقياس الخير أو الشر ، فيضمّون إلى الدين ماليس منه ويتمسكون بما ابتدعوا ويتهاونون بما كلّفوا به !!

لذلك قال الله لهم : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ، ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده . وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون»[(٣)] !!

قال أحد حكماء العرب وقد سمع هذه الوصايا « لو لم يكن هذا دينا لكان فى خلق الناس حسنا . . . » .

إن التدين الفاسد يعتمد على مسالك غبية موهما أنها مسالك غيبية .

ونحن عندما نتأمل فى الوصايا العشر السابقة نجدها تعتمد على التعقل والتذكر والتقوى ، ولا مكان فيها لبدع أو أهواء أوخزعبلات على النحو الذى أخذ على عبادات الجاهليين ، من قدامى ومحدثين .

وقد كان العرب الأوائل يقولون نحن أصفى معادن وأذكى قرائح من اليهود والنصارى ، ولو أنا أوتينا كتابا مثل ماأوتوا لكان لنا شأن !!

فها قد جاءكم كتاب ، وبعث فيكم رسول فماذا صنعتم ؟ « أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة . فمن أظلم ممن كذّب بآيات الله

---

(١) الأنعام : ١٢١ (٢) الأنعام : ١٤٤ (٣) الأنعام : ١٥١ ، ١٥٣

وصدف عنها ؟ سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون»[1]

والوعيد فى الآية يتجه إلى العرب البعثيين والقوميين والعلمانيين الضائقين بالوحى ، والكارهين للانتماء الإسلامىّ « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ـ تتوفاهم ـ أو يأتى ربك ـ أمره ووعيده ـ أو يأتى بعض آيات ربك ـ يعنى أمورا غير عادية ـ تصيبهم بذنوبهم » فلا يفيقون إلا بكارثة تنزل بهم-.

وقد جاء فى السنة أنه فى آخر الزمان يقع انقلاب فلكىّ تطلع به الشمس من مغربها . . وعندئذ لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا .

إن الإيمان عند الغرق أو عند الغرغرة أو عند النوازل الداهمة لا جدوى منه .

فهل يرجع العرب إلى المنهج الذى شرعه الله لهم وشرفهم به قبل وقوع هذه الأقضية ؟ .

إن العرب هواة تفرُّقٍ وانقسام ، ولو أنهم اختلفوا : هل يُجْهَر بالتأمين وراء الامام أو يُسَرُّ به لألف كلا الفريقين حزبا يخاصم الآخر ويستبيحه !

إن هذا الاختلاف ستار لشهوات كامنة مفسدة للقلوب « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون»[2]

وفى ختام السورة جاءت ثلاثة تلقينات تشير إلى وحدة الدين وإخلاص العبادة . ونقاء التوحيد وعدالة الجزاء .

هذه التلقينات تكمل ٤٤ قولا أمر الرسول بترديدها خلال السورة كلها :

« قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا . . . »[3]

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . . . »[4] .

« قل : أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء . . . »[5]

والأقوال المذكورة إذ تتم ماقبلها تشير إلى سيرة إنسان تمحض لله ودعوته والنصح لعباده ، وبلغ فى ذلك أوجا لم يبلغه أحد من قبله ، ذلكم هو محمد خاتم المرسلين .

أما التقرير الأخير فى هذه السورة ، فهو شرح لطبيعة الحياة الدنيا من البدء إلى النهاية ، إنها اختبار متتابع شديد .

---

(١) الأنعام : ١٥٧ — (٢) الأنعام : ١٥٩ — (٣) الأنعام : ١٦١

(٤) الأنعام : ١٦٢ — (٥) الأنعام : ١٦٤

المرء يُختبر بكل من يعرف من البشر ، ويُختبر بكل ماحوله من سراء وضراء .

ونتائج هذه الاختبارات تكشف هناك . . . فى الدار الآخرة .

الحياة هنا ممرٌّ لامقر

ومن حقيقة السير فيها يكون المثوى الأخير « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب و إنه لغفور رحيم »[1] .

* * *

(١) الأنعام : ١٦٥

سورة الأعراف

بدأت سورة الأعراف بحديث مجمل عن قضيتين : الأولى تتصل بالقرآن الكريم .

والثانية فى المنكرين له والمكذبين جملة بالوحى الإلهى .

فى القضية الأولى نزل قوله تعالى « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء . . . »[1] .

والحرج المنهىّ منه يجيء من سوء استقبال المشركين لمن يريد هدايتهم ، وتزهيدهم فى مواريثهم .

والإنذار إعلام مع تخويف ، والمطلوب من المستمعين عامة أن يتبعوا الكتاب الناصح لهم ، ويهجروا ما عداه من تقاليد لا خير فيها ، مهما كان مصدرها .

فإن الأولياء المتَّبَعين من دون الله لن يجيئوا بخير ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ . . .

وقد تحدثت السورة بعدئذ عن الكتاب فى جملة مواضع منها قوله تعالى « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله . . . ؟ »[2] .

يعنى هل ينتظرون إلا أن يتحقق وعده ووعيده ، فيظفر المؤمنون بالنصر والثواب ، ويكتوى الكافرون بالهزيمة والعقاب ؟ .

ومنها قوله تعالى «إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين »[3] .

وهذا على لسان النبى صلى الله عليه وسلم ومعناه أن الله يتولى نصره وحفظه حتى يبلغ ما نزل على قلبه ، ويجعل الحياة تستضيئ به وتسير بتوجيهه .

ومنها قوله تعالى فى ضرورة تدبر هذا الكتاب والانتفاع بما حوى من علوم «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »[4] .

فالكتاب ذكرى للمؤمنين ونماء لعقولهم ورحمة تهبط عليهم . . .

---

(١) الأعراف : ٢ ، ٣

(٢) الأعراف : ٥٢ ، ٥٣

(٣) الأعراف ١٩٦

(٤) الأعراف : ٢٠٤

أما القضية الثانية التى افتتحت بها السورة فهى تُذَرِّكَ من قوله تعالى « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين [١]» .

وهلاك القرى التى تمردت على المرسلين سنة وعاها التاريخ .

وقد فصلت سورة الأعراف ما وقع لعاد وثمود ومدين ، وقوم نوح وقوم لوط . .

ويظهر أن الله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء الأولين لعرب الجزيرة شمالا وجنوبا ، فلما كفر أولئك العرب وآذوا رسلهم دمر الله عليهم وأباد خضراءهم .

ثم آتى موسى الكتاب ليهدى به مصر ، وبنى إسرائيل ، وشرح مواقف الفراعنة واليهود شرحا واسعا .

فلما زاغوا عن الصراط ورفضوا هدايات الله أوقع بهم بطشه .

ثم عاد الوحى الخاتم مرة أخرى إلى وسط الجزيرة ، واستطاع محمد بفضل الله أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأن يجعل من العرب الذين اهتدوا به أمة وسطا .

ورثت الوحى إلى قيام الساعة ولا زال وحيها مصونا وكتابها قائما .

وسيبقى البشر ما بقيت الحياة الدنيا مكلفين بسماع هذا الكتاب والاقتباس منه لأنه وحده الذى يقيهم السيئات .

والمهم أن يقدر العرب رسالتهم ، وأن يعرفوا نفاسة الميراث الذى اختصّهم الله به عندما قال : «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا . . . » [٢] .

وأن يوقنوا بأنهم مُسا ءلون عن موقفهم منه «فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين . » [٣] .

وبيّن الله سبحانه فى صدر السورة أن الحساب الجامع سوف يبتّ فى مصير كل إنسان ، «والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خّفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » [٤] .

لكن هذا البيان الموجز أعقبه بعد قليل تفصيل كاشف عن مصاير الطوائف المختلفة التى اختصمت فى ربها على صعيد الأرض .

---

(١) الأعراف ٤ ، ٥
(٢) فاطر : ٣٢
(٣) الأعراف : ٦ ، ٧
(٤) الأعراف : ٨ ، ٩

فهناك أولا المؤمنون ، ثم أصحاب الأعراف ثم الكافرون .

وقد جرى حوار بين هؤلاء وأولئك نرى أن نتوقف قليلا عنده .

إن أهل الجنة يَحيوْن فى عالم من السماحة والحب والسلام ، مشغولون بشىء واحد هو تسبيح الله وتحميده ، وهم يشعرون بما أسدى الله إليهم من نعماء ويقولون «الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » [1].

إنهم - بإزاء ما رأوا من فضل - يُجرِّدون أنفسهم من كل استحقاق ، ويشعرون كأن العطاء الأعلى هو الذى سبق بهم وأنا لهم تلك المكانة .

وهنا يُذكِّرهم الله بسعيهم القديم وجهدهم المقبول « ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » [2].

وعندما ما يطمئنون إلى أحوالهم يتذكرون خصوم الأمس من الجبابرة والملاحدة فيحبون أن يعرفوا ما لاقوا « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجد تم ما وعد ربكم حقا .؟ قالوا نعم ! فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين » [3].

إن هؤلاء الظلمة كانوا ينكرون البعث والجزاء ، وكانوا يبطشون بالمستضعفين من المؤمنين ، وكانوا يشوهون معالم الحق ويغلقون طرقه ، فها هم أولاء يجدون مصيرهم العدل . .

واختصت هذه السورة بذكر أصحاب الأعراف ، ومنهم أخذت اسمها .

والشائع بين المفسرين أن هؤلاء قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فانتظروا حتى يُبَتَّ فى أمرهم !

وأرى أن أصحاب الأعراف هم الدعاة والشهداء الذين بلغوا رسالات الأنبياء وقادوا الأمم إلى الخير ! !

فإن الأعراف هى القمم الرفيعة ، ومنها سُمِّى عرف الديك عرفا . . .

وهم فى الآخرة يرقبون الجماهير والرؤساء فى ساحة الحساب ، ويلقون بالتحية أهل الجنة ، وبالشماتة أهل النار .

وحديث القرآن الكريم عنهم يرجح هذا الفهم فهم يتكلمون بثقة ويوبخون المذنبين على ما اقترفوا ويستعيذون بالله من مصيرهم . .

---

(١) الأعراف ٤٣ (٢) الأعراف ٤٣ (٣) الأعراف : ٤٤

ومن المستبعد أن يكـون ذلك موقف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم لا يدرون أين يُذهب بهم ؟ .

وهناك نداء أخير من أهل النار وهم يرسلون صراخ النجدة «ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . . » [١]. وهيهات فلن يجيرهم من الله أحد ! !

لقد كفروا بالله ، وجحدوا لقاءه ولم يخطر ببالهم هذا اليوم ولا استعدوا له بشىء فمن أين تأتيهم النجدة ؟ .

وهنا نذكر أن معانى القرآن متداخلة متضافرة تلتقى كلها فى سياق واحد يعمل عمله فى النفس ، وليست هدايات القرآن فصولا مقسمة على نحو متميز .

وهكذا العالم تراه مصدرًا لأشتات العلوم وهو كيان واحد يستقى منه علماء الأحياء وعلماء طبقات الأرض وعلماء الفلك وعلماء القوى المحركة . . الخ .

من لطائف التعبير أن يذكر بنو آدم فى أول سورة الأعراف والمقصود أبوهم ، وأن يذكر آدم نفسه فى آخر السورة ويقصد بنوه !

فى أول السورة يقول تعالى « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . . . »[٢].

وفى آخر السورة يقول الله جل شأنه فى خطايا البشر وشركهم واعوجاج سيرهم «هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها . . . » [٣]. ثم يقول : «فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون . أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون»[٤].

وظاهر أن الذين اقترفوا جريمة الإشراك هم أبناء آدم الذين اضطربت عقولهم فزاغوا . . ! !

والنظم القرآنى أولا وأخيرا يعنى البشرية جمعاء ، ويذكر رسالة الإنسان التى كلّف بها ولم يحسن أداءها . . .

والإنسان مع الشيطان ليس مغلوبا على أمره ، وإنما هو مخدوع كبير أو مستغفل غرير !

إن الشيطان يملك جهاز إذاعة طويلة الأمواج أو قصيرتها ، والإنسان يستطيع أن يسمع وألا يسمع .

---

(١) الأعراف : ٥٠ (٢) الأعراف : ١١

(٣) الأعراف : ١٨٩ (٤) الأعراف : ١٩٠، ١٩١

فمن ضبط جهاز استقباله على محطة إرسال معينة سمع ما يريد ، وإلا فهو بمنجاة .

ولا يملك الشيطان إلا قدرة البثّ ولا يقدر أبدا على تضليل إنسان بقوته !!

والغريب أن الإنسان نسى ما وقع لأبيه عندما طُرِدَ من الجنة ، ولا يبالى أن تتكرر المأساة لا سيما والشيطان قد أقسم على إذلال أبناء آدم جميعا .

«فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين . . »[1] .

أما كان ينبغى أن نحذر هذا الحقد المبين ؟؟ .

والأغرب أن تجىء خدعة آدم من حيلة مشكوفة لا تنطلى على ذكىّ يقظ ! لقد قال إبليس له : إنك منعت من الشجرة حتى لا تكون مَلَكًا !!

وكان آدم قادرا على أن يقول له : إن الملائكة سجدت لى فكيف أهبط عن مكانتى ؟ إن ما أنا فيه أفضل !!

وأطمع إبليس آدم فى الخلود إذا أكل من الشجرة !! ومن قال : إن آدم وبنيه ليسوا من الخالدين؟ حتى لو ماتوا ، فالموت نقلة إلى حياة أقوى وأكبر !!

إن الشيطان أفّاك خدّاع ، واللوم لا يُوجَّه إليه ، وإنما يوجَّه إلى من انخدع به . . . ومن وقع فى مصيدته بهذا الشَّرَك المكشوف . . . !!

وفقد آدم ما كان فيه من النعيم ، وهبط هو زوجته إلى الأرض ليأكلوا بكدّ اليمين وعرق الجبين!!

وتعرضت ذراريهم للتجربة الأولى والخدعة القديمة ، ترى هل يعتبرون ؟ .

«قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين »[2] . إلى وقت محدود وعمر معدود ثم ترجعون إلى الخالق الكبير ليسألكم عن حالكم فى هذه الفترة أكنتم عبيدا له أم عبيدًا للشيطان ؟؟ .

« قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون »[3] .

وبعد هذا السرد لقصة آدم اتجه الحديث إلى أولاده على مر العصور فنودوا أربع مرات ليسمعوا نصائح ربهم وينجوا من كيد عدوهم !

ونلحظ فى هذه النصائح أنها حداء إلى الإنسانية الرفيعة أو إلى دين الفطرة !

---

(١) الأعراف : ١٦ ، ١٧ (٢) الأعراف : ٢٤ (٣) الأعراف : ٢٥

والمحزن أن عالمنا المعاصر مفتون بإنسانية هابطة أو علمانية تشدّه إلى التراب وتربطه بنزعاته وقلما ترفعه إلى السماء ، من حيث جاء .

فلنتدبَّرْ هذه النداءات الأربعة : أولها يتصل بالملابس ! لقد انفرد الإنسان دون سائر الحيوان بارتداء ثيابه ، وحسنا فعل فهى تستر عورته وتزين هيئته . .

وللناس فى ملابسهم تجاوزات : فقد يختالون فيها ويستكبرون .

وقد يزنون أنفسهم بقيمة ما يرتدون .

وقد تقصِّر النساء ثيابها حتى لتكاد تكشف سوءاتها !

وقد تضيقها وترققها حتى لتكاد تصف وتشفّ !

وهذا كله لا يسوغ فإن شرف الإنسان ليس فى ثوبه ، وقيمته ليست فيما يرتديه .

هناك ثوب آخر يكسو باطنه ، ويبرز حقيقته هو ما سماه القرآن بلباس التقوى ، وما عناه الشاعر بقوله :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكل رداء يرتديه جميل . !

وقال شاعر آخر

لِأن أُزَجِّيَ عند العرى بالخَلَقِ   واكتفى من يسير الزاد بالعُلَق

خير وأكرم لى من أن أرى مِنَنًا   معقودة للئام الناس فى عنقى

يعنى أفَضِّلُ لبس خلقات بالية وأكل لقيمات تافهة على أن أمدّ يدى إلى أحد لألبس الغالى «يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » [1] .

ونحن فى تفسيرنا نربط بين هذا التذكر ، وبين قول الله أول السورة « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون » [2]. وقوله بعد ذلك « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلّت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات . كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكّرون » [3].

ما أكثر أسباب التذكّر ولكن الإنسان ينسى !

ويتكرر النداء « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة . . . . » [4]. لاينبغى أن يقع للأبناء ما وقع للأب من قبل !

---

(١) الأعراف : ٢٦   (٢) الأعراف : ٣   (٣) الأعراف : ٥٧   (٤) الأعراف : ٢٧

لقد نجح الشيطان فى إخراج آدم من الجنة فهل ينجح فى حرمان بنيه منها ؟ وتعريتهم كما عرّاه !

إنه عدو حاقد ، ويستطيع أن يراكم وأنتم لا ترونه ، فهو عليكم أقدر ! لكنه لا يقدر على غواية مؤمن لأن الإيمان حرز حريز ، وشباكه لا يقع فيها إلا فاقد الإيمان . .

ومن الأعذار المرفوضة تقليد الآباء الجهلة واختلاق أسباب كاذبة للسلوك المعوج .

كان الذين يطوفون بالكعبة عرايا يقولون لا نطوف فى ملابس عصينا الله فيها ! !

وأغلب المتدينين المنحرفين يضمُّون تحت خيمة الغيبيات أمورا ما أنزل الله بها من سلطان ، تخالف العقل والنقل ، ثم يزعمون أن الله أمرهم بها .

والله أعلى وأجلّ من أن يأمر بفاحشة مضادة للذوق والفكر والفطرة « أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ . قل أمر ربى بالقسط »[1] .

إن العدالة طريق مأنوس للبشر كلهم فما الحرج فى سلوكه ؟ .

ولماذ لا نسلم كياننا كله لمن خلقنا ، وإليه نعود ؟ « وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون . فريقا هدى وفريقا حقَّ عليهم الضلالة »[2] .

فكن مع أهدى الفريقين وأولاهما بالنجاة والكرامة .

* * *

يعتمد التدين المزوّر على الرهبانية والتقشف فى ربط الناس بربّهم

ولذلك يهتم برداءة الهيئة ورثاثة الملبس وخشونة الطعام ومخاصمة الطيبات .

وتعاليم الإسلام تسير عكس هذا الاتجاه ، وتحقق العبودية لله داخل النفس الإنسانية قبل كل شىء . فتهتم بسلامة الصدر وكبح الأثرة وإكنان التواضع والمرحمة .

ولأن يقف الإنسان مصليا فى لباس حسن خير من أن يقف مصليا فى لباس زَرِىّ .

ومن هنا جاءت الآية « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين »[3].

وفى الحديث « كل ما شئت والبسْ ما شئت ، ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة » .

والواقع أن الرذيلة تكمن فى الإسراف الذى يحمل على التوسع الممجوج فى الطعام والكسوة ، وعلى التماس الوجاهة بهذا السلوك . .

---

(١) الأعراف : ٢٨ ، ٢٩ (٢) الأعراف : ٢٩ ، ٣٠ (٣) الأعراف : ٣١

على أن الدين ليس سباقا فى كمال الأجسام ، ولا اكتنازا لهذا الحطام . .

والمرء فى سعيه للآخرة يقلّ اكتراثه بكثير من اللذائذ ، ولكنه لن يتعبد بلبس الخِرَق أو أكل الخشاش ! !

«قل من حرم زينه الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » [1]؟ .

و إضافة الزينة إلى الله تعنى أنه مصدرها وشارعها وقابل عباده فيها .

ويزداد المعنى وضوحا فى قوله « قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » [2].

أى ينفردون بها فى الآخرة ، وقد يشركهم غيرهم فيها أثناء هذه الحياة . . !

«قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهرَ منها وما بطن » [3] . حرّم الخفىَّ من الجرائم والمكشوف كالحقد والغضب « والإثم والبغى بغير الحق » [4]. سائر الذنوب وخاصة الاستطالة على الآخرين واستباحتهم .

وقد لاحظ نقدة الفكر الدينى أن بعض الناس يقصِّر ثيابه دلالة تقوى ، وفى قلبه كبر فرعون!

ونبهت السنة إلى أن الله يكره العائل المزهوّ أى الفقير المتكبر ، والكبر قد يكون فى صدر لابس الخيش ، وقد يتنزّه عنه لابس الكتّان . . ! !

المهم سلامة الفطرة واستجماع شمائلها . .

والتعلّق بالله الواحد ، والبراءة من سائر الشركاء هو الأساس الأول للفطرة .

والإنسان عندما يخلو بنفسه لا يتجه إلى إلّهين أو ثلاثة ! إنما يتجه إلى إلّه واحد ، يجأر إليه فى الضراء ، ويلهج بشكره فى السراء .

والواقع أن الشرك نضح بيئات ضالة فقدت رشدها وآذت غيرها .

وقد قام الإسلام على الفطرة عقيدة وأخلاقا ، والقرآن هنا يقول « وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » [5].

وفى السورة نفسها بيان لاحق بأن مواثيق هذه الفطرة مأخوذة على الإنسان منذ نشأته الأولى «و إذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل . وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » [6]! !

---

(١) الأعراف : ٣٢ — (٢) الأعراف : ٣٢ — (٣ ، ٤) الأعراف : ٣٣

(٥) الأعراف : ٣٣ — (٦) الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣

والسياق الكريم يشير إلى أن الإنسان لا يعذر فى شروده عن التوحيد ، مهما كانت ضراوة الوسط الذى عاش فيه . فإن نداء الفطرة داخل نفسه ينبغى أن يقاوم كل عوج ، ويستبقى معرفة الله منزَّهة عن كل شائبة .

والفطرة تعنى قابلية النفس لتلقى عقيدة التوحيد وحدها .

وإذا كانت ترفض الشرك فهى من باب أولى تأبى الإلحاد ! !

والحق أن طبيعتنا العقلية والنفسية تأبى وجودا بلا موجد أو خلقا بلا خالق ، تأبى الزعم بأن الحياة انطلقت من صفر ! !

إننا نشعر بفقرنا إلى آخر ! ! منه بدأنا ، ولكن مَنْ هذا الآخر الذى منحنا الحياة ؟؟ إننا بوحى الفطرة لا ننساق إلا إلى الله رب العالمين الذى يدين الكلّ بالعبودية له !

مَنْ يكون هذا الآخر ؟ لا وجود له إلا فى أوهام المخدوعين . ! !

ولذلك جاء ـ بعد وصاة بنى آدم بالتوحيد الخالص ـ هذا التقريع للذين ظلموا أنفسهم «فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب . . . » [1]. أى ما قدِّر لهم على ظهر الأرض من أرزاق وأعمار .

«حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ، قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالو ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » [2].

وللذهول عن الله أسباب ، أولها فيما أرى ما ينشأ عن اتّصال الإلف واطراد العادة من مشاعر كاذبة .

فالغنى من طول الشبع ينسى ألم الجوع ، والسليم من استمرار الصحة ينسى ألم المرض ، وكلاهما يظن الحياة لا تعدو ما أحسّ .

بل إن الإنسان الفذ ينسيه حاضره الغالب ما عراه فى ماضيه القريب أو البعيد من شئون أخرى على نحو ما قال الشاعر .

كأن الفتى لم يعْرَ يوما إذ اكتسى ولم يك صعلوكا إذا ما تموّلا ! !

ونحن مع اختلاف الليل والنهار وطلوع الشمس والقمر نظن أن ذلك الواقع ضربة لازب ، وأنه لا مصرِّف له كأنما يقع من تلقاء نفسه ! !

فاحتاج الأمر إلى الوحى الإلّهى يذكّر الناس أن الله فاعل ذلك كلّه . .

---

(١) الأعراف : ٣٧ (٢) الأعراف : ٣٧

«إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين »[١].

ومع تقلب الزمان يتعرض الناس للحلو والمرّ والهزيمة والنصر .

وهم فقراء إلى ربهم يباعد عنهم ما يكرهون ويقارب منهم ما يشتهون .

ولذلك قال « ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها . وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين » [٢]. .

وما أكثر ما يتقلب الناس فى هذه الدنيا بين الوعد والوعيد والخوف والرجاء ، وما أكثر ما يشعرون بأن ما يطلبون لا يسوقه إلا الله ، وما يكرهون لا يدفعه إلا الله !! ولذلك قال «وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلّت سحابا ثقالا سقناه إلى بلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات . كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » [٣].

مع بدء سورة الأعراف بدأت عدة معان مجملة أخذت تتسع كأنها رءوس مثلثات تضمنت قواعدها تفاصيل شتى ، على أن هذه المعانى لا تسير فى تيارات منفصلة ، بل تراها وهى تتلاقى كأنها ضفائر متناسقة هدفها جميعا تكوين الإيمان والعبرة والاستقامة والوعى . .

والمهم هو الاستقبال المعقول ، فإن المطر المنهمر على الحجارة لا يُنبت منها شيئا .

«والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه . والذى خبث لا يخرج إلا نكدا . كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » [٤].

* * *

أطنبت سورة الأعراف فى ذكر الأمم التى تمردت على الوحى فصرعها بغيها .

ويلاحظ أن أغلب هذه الأمم فى المناطق العربية ! فقوم نوح بالعراق ، وعاد باليمن وما جاورها ، وثمود بأعلى الحجاز ، ومدين بين سيناء والأردن ، وقوم لوط شرق فلسطين ، وهؤلاء جميعا قاوموا المرسلين وجحدوا ما جاءوا به . .

وسبقت قصة آدم قصص هؤلاء كلهم ، وبرز فيها معنى ينبغى أن نذكره .

فإن الشيطان غرر بآدم حتى طرده من الجنة ، ولا يزال يقطع الطريق على أبنائه حتى لا يعودوا إليها . ! .

---

(١) الأعراف : ٥٤ (٢) الأعراف : ٥٥ ، ٥٦ (٣) الأعراف : ٥٧ (٤) الأعراف : ٥٨

ولن نشرح بقية القصص فهى مكررة فى القرآن الكريم ، ولن يُعرف تاريخ أمة من قصة واحدة بل من جملة الوحى المفرَّق على سور كثيرة .

وإنما يعْنينا هنا أن نتساءل : كم من القرون سلخت هذه الأمم جميعا من تاريخ الحياة ؟ .

إننى بعد التأمل أجد أن الحياة من أيام الطوفان إلى الآن تبلغ ثمانين قرنا . . فكم سلخت الأمم بين آدم ونوح ؟ ما أحسبها تزيد عن هذا الأمد ! !

ولم يحدثنا القرآن بتفصيل عن هذه الأجيال بين آدم ونوح !

ومن هنا فأنا أشك فى البحوث الجيولوجية التى تخبرنا أن جمجمة آدمية وجدت ودلّ فحصهاعلى أن لها عشرات الملايين من السنين ! !

جمجمة من هذه ؟ لعل هناك خلائق أخرى غير الجان سكنت هذه الأرض !

أيًا ما كان الأمر فهذا بحث لا يهمنا .

وقد تدبرت تعليق القرآن الكريم على هلاك الأمم المكذبة فوجدت أن الأمر لم يكن إنذارا ، فعصيانا ، فعقابا .

كلا لقد طال الأمر ، وامتدت أجيال ، وتوارثت الأقوام النذر كما توارثت التكذيب فحاق بها ما حاق !

ترى ذلك فى قوله تعالى « وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضَّرعون . ثم بدَّلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفَوْا وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون » [(١)].

ومعنى عفَوْا زادوا ، والسيئة والحسنة هنا الأحوال حَسَنُها وسيِّئُها ، وليس المراد الطاعات والمعاصى . .

والأمم التى أبيدت هى التى حفرت قبرها بيدها ، فما وقعت بها شائبة ظلم .

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » [(٢)].

وكان على الخُلُوف أن يتعظوا بمصارع الآباء والأجداد ، ولكنهم لم يعتبروا ، فهلكوا « أو لم يهْد

---

(١) الأعراف : ٩٤ ، ٩٥

(٢) الأعراف : ٩٦

للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم . . . ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » [١].

وهكذا طوى القدر صفحة العرب العاربة ومن لفّ لفَّها .

ثم نقل الرسالات إلى الشعبة الثانية من الجنس السامى . . . إلى بنى إسرائيل قال تعالى :

«ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون ومَلَئِه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين»[٢].

وكان أولاد يعقوب ـ الملقب بإسرائيل ـ يعيشون عيشة البدو فى صحراء الشام ، ثم استدعاهم يوسف فسكنوا مصر ، وهناك تناسلوا وزادت أعدادهم .

ورفضوا الذوبان فى الشعب المصرى ، وانفردوا بعقائدهم وتقاليدهم ، ونشب بينهم وبين المصريين خصام شديد ، واستذلهم الفراعنة وأنزلوا بهم مآسى موجعة .

حتى شاء الله فأنقذهم على يدى موسى بعد مراحل متطاولة قال لهم موسى خلالها : «عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون » [٣].

والكلمة ناضحة بما كان يخافه موسى من قومه . وقد كان صادق الحدس فى سوء ظنه بهم .

فإنهم بعد نجاتهم من المظالم التى قصمت ظهورهم ، بفضل الله وحده ، كان أول ما صنعوه النزوع إلى عبادة الأصنام « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا إلَها كما لهم آلهة ! قال : إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبَّر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون . . » [٤].

والغريب أن حنينهم إلى الوثنية سيطر على أفكارهم وأعصابهم فما كاد موسى يذهب لمناجاة ربه حتى اتخذوا من حُلِيِّهم عجلا جسدا ، ليعبدوه من دون الله .

وفى هذا الصنيع يقول الله تعالى «إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربِّهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين » [٥].

والحق أن جمهرة كبرى من اليهود كان إيمانها مغشوشا ، وكانت شهواتهم تغلب عليهم .

وكانوا يحتالون على الله فى التنفيس عنها ، فإذا حرّم عليهم الصيد يوم السبت ، ورأوا السمك كثيرا فى الماء صنعوا وراءه حاجزا يمنعه من الهرب ، ثم جاءوا يوم الأحد وأخذوه .

---

(١) الأعراف : ١٠٠ (٢) الأعراف : ١٠٣ (٣) الأعراف : ١٢٩
(٤) الأعراف : ١٣٨ ، ١٣٩ (٥) الأعراف : ١٥٢

«واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذْ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرَّعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » (١).

ويظهر أن العقلاء رفضوا هذا المسلك ، ثم انقسموا أينصحون قومهم لعلهم يرعوون أم يتركونهم يأسا منهم لله « فلما نسوا ما ذكِّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » (٢).

وقد حكى لنا التاريخ أن الدولة اليهودية سقطت فى يد أعدائها « وقطَّعناهم فى الأرض أُمَماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك . . . » (٣).

وفى الحديث الشريف أن نبينا صلى الله عليه وسلم سئل : « أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذ اكثر الخَبَث . . » .

وشتّت الله شمل بنى إسرائيل ، ومكن أهل الأرض منهم ، وتاذَّن بأن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . .

وظاهر من سيرة اليهود أن فسادهم عن علم ، فالأولون من الأمم الهالكة كان الجهل يطغيهم ويطيش بمسالكهم أما اليهود فقد عبثوا بالوحى وتمرَّدوا على حَمَلَته « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » (٤).

وحديثهم عن الله لا أدب فيه ولا توقير ، وقد سبق أن قالوا لموسى «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ها هنا قاعدون » (٥).

وترادفت وقاحاتهم على هذا النحو فحقت عليهم كلمة ربك ، ولذلك بعد أن سرد الوحى قصتهم قال « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . . . » (٦).

وهذا السياق يصدق فى كل فرد وكل شعب تأتيه هداية الله فيزهد فيها ويرخص قيمتها . .

وقد قامت اليوم دولة لليهود على حساب العرب ، والسبب واضح ، أن اليهود قاتلوا شرًّا منهم!!

---

(١) الأعراف : ١٦٣ (٢) الأعراف : ١٦٥ (٣) الأعراف : ١٦٨

(٤) المائدة : ٧٠ (٥) المائدة : ٢٤ (٦) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

قاتلوا العرب والعرب معطلون لحدود الله ، مستبيحون لحرماته ، تاركون للواء محمد لا يمشى تحته أحد ، وسائرون تحت ألوية الغدر والعصيان . .

فلا عجب أن ينطبق عليهم ما انطبق على غيرهم مصداق قوله بعد ذلك فى اليهود وكل مارق «ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها . و لهم أعين لا يبصرون بها . ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل . . . » [(١)].

* * *

بعد الحديث عن الأمم التى هلكت لسوء سلوكها نقرأ آيتين جديرتين بالتأمل : الأولى قوله تعالى « من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون » [(٢)]. وقوله بعد ذلك « من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون » [(٣)] .

ونؤكد أنه ليس فى هاتين الآيتين ولا فى غيرهما مما يشبهها أية أثارة من جبر !

إن حرية الإرادة البشرية فوق الجدل و إلا سقط التكليف كله واعتبر الوجود مهزلة !!

ونلفت النظر إلى أن هناك ضلالا ، وأن هناك إضلالا ، ولا يُضل الله سبحانه إلا من ضلّ .

هناك زيغ وهناك إزاغة ولا يُزيغ الله سبحانه إلا من زاغ .

كما قال فى سورة أخرى « قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا . . . . » [(٤)] .

ويغلب تذييل الآيات بما يثبت الاختيار البشرى ونجد هنا قوله تعالى « . . . ويذرهم فى طغيانهم يعمهون » بعد قوله « من يضلل الله فلا هادى له » إشارة إلى أن هلاكهم وليد طغيانهم .

وفى الآية التى سبقتها « . . ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون » إشارة إلى أن مسلكهم هو سبب خسارهم . .

وعلى سنة القرآن فى التعبير البلاغى يجىء نظم الآيات فنحن نقول : تأخذ الأفران وَقودها من الأخشاب الجافّة والأعواد اليابسة .

ونقول : يأخذ السقوط أهله من الكسالى والقاعدين .

وهذه كلهاعبارات مجازية فلا الأفران تأخذ ولا السقوط يأخذ . .

وعلى هذا النحو جاء التعبير القرآنى « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها . . . . » [(٥)] و الخ .

---

(١) الأعراف : ١٧٩ (٢) الأعراف : ١٧٨ (٣) الأعراف : ١٨٦

(٤) مريم : ٧٥ (٥) الأعراف : ١٧٩

والمراد أن القلوب المحجوبة والعيون المغلقة تقود أصحابها إلى جهنم وعلى كل امرئ يريد النجاة أن يفتح قلبه وعينه وذلك فى مقدوره بيقين . !

ولذلك قال جل شأنه « أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنّة . . . » [1] !

« أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء . . . » [2] .

وفاقد الفكر والنظر لا يلومنّ إلا نفسه .

وقد نصح الله المسلمين كيما يتجنبوا مصاير الأولين أن يحسّنوا علاقاتهم بالله ، وأن يدْعوه سبحانه بأسمائه الحسنى ويبتعدوا عن الشرك القبيح والظن السيئ « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها . . . . » [3] .

ولا شك أن الكمال والمجد والغنى لله وحده ، ونحن عند الحيرة ندعو الهادى ، وعند الظلمة ندعو النور وعند الحاجة ندعو الغنىّ ، أما المقطوعون عن الله فهم يدعون غيره ، أو يجهلون قدره فهم ملحدون فى أسمائه محجوبون عن ذاته ! .

والخاصة الأولى للأمة الإسلامية صدق توحيدها وعبوديتها « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » [4] .

إن لله مكرا بالمجرمين قد تذهلهم عنه لذّات عاجلة أو انتصارات خادعة أو تقلّب فى البلاد مقرون بالسطوة والكبر . .

وهذه الأحوال من إملاء الله للمبطلين ، ثم يجرُّهم حبل المنيّة إلى مصارعهم من حيث لايعلمون قال تعالى : « وأملى لهم إن كيدى متين » [5] .

والمطلوب من أهل الحق إذا لحقتهم البأساء والضراء ألاّ يضطرب يقنيهم ويفترّ حماسهم ، بل يجب أن يصابروا الليالى الكالحة حتى يدركوا النصر الإلهى وهو آتٍ حتما وإن طالت السنون .

ولما كان الإيمان باليوم الآخر امتدادا للإيمان بالله وأسمائه فإن النفس البشرية تتطلع إلى معرفة ميقاته ، وتتطلّع إلى الساعة المؤذنة به .

وقد يسعى البعض إلى رسول الله ـ بصلة خاصة ـ يحاول عن طريقه اكتشاف ذلك المجهول الغائب !

---

(١) الأعراف : ١٨٤ (٢) الأعراف : ١٨٥ (٣) الأعراف : ١٨٠

(٤) مريم : ١٨١ ، ١٨٢ (٥) الأعراف : ١٨٣

وقد نزل الوحى رافضا هذه المحاولات وكاشفا أن علم الساعة لله وحده :

«يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل إنما علمها عند ربى لا يجلِّيها لوقتها إلا هو. . .»(١).

والواقع أن استشرافنا لهذه المعرفة قليل الغناء ، إنه قد يعنى المعاصرين لقيام الساعة ، أما نحن فساعتنا تبدأ من حين الوفاة .

عندئذ ننتقل إلى العالم الآخر ، ونعرف أن الحياة الدنيا كانت وهما كبيرا . . !

ومن خصائص الإسلام التوكيد على نبوة محمد وعبوديته إنه ليس إلَها ولا شبه إلَه ولا جزء إلَه ، إنه عبد الله الواحد لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرًا ولا نفعا . .

وكذلك سائر الملائكة والبشر ، ومن زعم غير هذا فهو كذوب . .

وعادت سورة الأعراف ـ كما بدأت ـ تتحدث عن آدم ، لقد ذكر هنا والمراد ذريته كما ذكرت الذرية أول السورة والمراد آدم نفسه .

والسياق هنا عاتب غاضب ! إن الله غمر أبناء آدم بأنعمه ، فبدل أن يشكروا له أشركوا به ! «أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون . ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون »(٢).

ثم اتجه الخطاب إلى الدعاة وإمامهم مندداً بجمود هؤلاء المشركين وعدم استفادتهم من الوحى النازل لهدايتهم «وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون »(٣).

وهذا جمودٌ مستغرب ، وعلى سيد الدعاة أن يصمد أمامه مستمسكا بالكتاب الذى نزل عليه قائلا بلسانه وجنانه «إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولّى الصالحين »(٤).

وهذا الكتاب أجدى من الخوارق الحسِّية التى ينتظرونها ويطالبون بها « . . . قل : إنما أتبع ما يوحى إلىّ من ربى هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(٥).

ومهما طال التعنُّت وزادت المكابرة فعلى الرسول الكريم أن يصبر «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »(٦). . .

---

(١) الأعراف : ١٨٧ (٢) الأعراف : ١٩١ ، ١٩٢ (٣) الأعراف : ١٩٣
(٤) الأعراف : ١٩٦ (٥) الأعراف : ٢٠٣ (٦) الأعراف : ١٩٩

إن هذه السورة قصّت فى أوائلها كيف نجح الشيطان فى إخراج آدم من الجنة ، وبيَّنت أن محاولاته لتضليل بنيه لن تنتهى ! لكن الشيطان لا يملك أكثر من الوسوسة . وما دام الإنسان مؤمنا فستنهزم الوساوس وترتدّ مدحورة «إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » [1].

لكن الذين حرموا هذا القلب الصاحى يتبعون الشيطان فيقودهم إلى مهالكهم ! وخير ما يعصم المرء تشبُّثه بذكر الله ، فإن هذا الذكر يعصمه من الزلل ويستبقيه فى مستوى رفيع . وخير الذكر هو الكتاب الكريم « وإذا قرئَ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » [2].

وليس هذا الذكر حركة لسان مع غفلة قلب وشرود ذهن .

إن الذكر وعى مكتمل وهو من وظائف العقل قبل كل شىء .

ويجب أن يكون موصولا لا متقِّطعا ، ومسيطرًا على السر والجهر ، وباعثا على الرغبة والرهبة : «واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين»[3]. وبهذا الذكر ينتظم المؤمن العابد مع الكون كله ، وهو يسبِّح بحمد ربه .

* * *

---

(١) الأعراف : ٢٠١ (٢) الأعراف : ٢٠٤ (٣) الأعراف : ٢٠٥



سورة الأنفال

كانت هزيمة أحد مفاجأة لأصحابها ، وكان نصر بدر مفاجأة لأصحابه .

والمفاجآت كلها ، سارُّها وضارُّها أصدق الامتحانات لكشف معادن النفوس ومعرفة المخبوء فيها . . !

وقد جاءت سورة الأنفال فى أعقاب انتصار المسلمين فى بدر لتبيِّن عمل القدر وجهد البشر.

فأبانت أن النصر الذى أعز الله به المسلمين كان مكافأة سماوية على صبر السنين الماضية .

وأن الرجال الذين خاضوا المعركة كانوا أدوات لتحقيق الآية الكريمة « كتب الله لأغلبَّن أنا ورسلى إن الله قوىّ عزيز » [1].

ولذلك بدأت السورة فقطعت تعلق المسلمين بالغنائم ، وجعلت توزيعها لله ورسوله .

فلا معنى للدعوى ولا للنزاع فى خير ساقه الله إلى طائفة من عباده «ليحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » !!

وكان الاهتمام الأول لإظهار أن الرجولة مواقف ، وأن للإيمان أمارات تبعث على سِيَر معيَّنة «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا . . . » [2].

تأمل فى آيات الإيمان هنا . . . إنها ذكر وَوَجَلٌ وقراءة وتوكل ونفقة . .

لكننا فى آخر السورة نجد أن للإيمان الحق أمارات أخرى .

قال تعالى « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا» [3] إنه هجرة وجهاد و إيواء ونصرة ، هذا هو الإيمان الحق .

وفى سورة أخرى يقول تعالى «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » [4].

---

(١) المجادلة : ٢١
(٢) الأنفال : ٢ ، ٣ ، ٤
(٣) الأنفال : ٧٤
(٤) الحجرات : ١٥

هنا تنويه باليقين الذى لا يتزلزل والإنفاق الذى لا ينقطع ، إنه الجهاد بالنفس والنفيس . .

وفى سورة أخرى « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه . . »[١].

ظاهر من هذه التعريفات الكثيرة أن الرجولة مواقف شتى لا موقف واحد ، و أن للإيمان مطالب مفروضة تتباين بتباين الأحوال والأوقات . .

وأنه لا يجوز أن يتخلف مطلب فى حينه ومناسبته . .

وأن المسلمين إذا قيل لهم دعوا أمر الغنائم الآن فسوف يحكم الله فيها وجب أن يستجيبوا فمصلحتهم فى الاستسلام لأمر الله .

وقد أمرهم رسول الله بالتصدِّى للمشركين فى المعركة التى فرضت عليهم بغتة فماذا حدث ؟ .

كان فريق منهم يحسب القتال خطة سيئة ، ويرى أن المسلمين لم يستعدوا له .

ومن الممكن الانتظار واستنفار بقايا المسلمين فى المدينة ليواجهوا جميعا المعركة التى لم تكن فى الحسبان .

لكن النبى الكريم علم أن مكانة الإسلام ستهتزّ إذا لم يقبل التحدى ، وشعر بأن الله لن يخذله فى هذا الموقف المحرج وعرض الموقف على جماعة المقاتلين فقرروا منازلة العدو !

«كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعد ما تبيَّن كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » [٢].

كان النبىّ عليه الصلاة والسلام مؤملاً فى أن الله لن يرد المسلمين خائبين وقد أشعره بهذا الأمل حين قال « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ـ العير أو النفير ـ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » [٣]يحبون الغنيمة الباردة !

ولكن الله يريد أمرا آخر كشف عنه القتال وجعل الأحداث تتدافع إليه « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » [٤].

وطبائع الناس إذا دهمتهم محنة فوق طاقاتهم أن يفزعوا إلى الخالق الأعلى مستغيثين .

وذلك ما وقع عندما رأى المسلمون إعداد العدو وتفوّقه عددا وسلاحا .

«إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى مُمِدُّكم بألف من الملائكة مردفين » [٥].

---

(١) النور : ٦٢ (٢) الأنفال : ٥ ، ٦ (٣) الأنفال : ٧
(٤) الأنفال : ٨ (٥) الأنفال : ٩

وملك واحد يكفى لحصد المشركين ، ولكن الله أراد طمأنة عباده بذكر العدد، « وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم »[1].

وقد اجتهد النبيّ عليه الصلاة والسلام فى الدعاء «اللهم نصرك الذى وعدتنى ! اللهم إن تهلك هذه العصابة من المؤمنين فلن تعبد فى الأرض » .

وكان يناشد الله بحرارة واستغراق رافعا ذراعيه إلى السماء حتى سقط رداؤه عن منكبيه وكان أبوبكر خلفه يقول : يا رسول الله بعض مناشدتك لربك ، إن الله منجز ما وعدك . .

ولم ينته الرسول من دعائه حتى أعلمه الله بمصارع القوم . .

ويتساءل العلماء هنا عن قلق أبى بكى فى الغار ـ أثناء الهجرة ـ حتى كان الرسول هو الذى يثبته ، وعن موقفه الواثق فى معركة بدر يطمئن الرسول ويهدِّئه ؟؟

والجواب أن عبودية الرسول أوضح وأرسخ من عبودية الأمة كلها .

كان فى الهجرة فارغ اليد من أسباب النصرة فاطمأن إلى أن الله معه يرعاه ويحفظه . أما فى بدر فمعه جيش ، وإن كان ضعيفا فقد يعتمد عليه ! فرأى النبى الكريم أن يبرأ من حوله وطوله ، وأن يلجأ إلى الدعاء طالبا من الله النجدة ، منتظرا منه وحده النصر . .

وهنا تدخلت أسباب السماء ، فنزل مطر ثبت الرمال تحت أقدامهم ، ونامت العيون القلقة ، واختفت الوساوس .

وربط الله على القلوب ودبّ الرعب فى نفوس الكثرة المشركة ، فقاتلت أسوأ قتال .

واختلّت صفوفها تحت مطارق هزيمة لم تخطر ببال !! «ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب »[2].

لكن النصر الإلٓهى لا يستحقه من يفرِّط فى الأسباب المعتادة ، وأول هذه الأسباب شجاعة تغرى بالإقدام ما تهاب الرَّدى ، وتؤثر ما عند الله فهى تركل الدنيا رغبة فى الآخرة .

ونحن بلا ريب بشر تربطنا بالحياة أواصر متينة ، ويعجبنى تصوير فرسان العرب لهذه المواقف وهم مقبلون على الموت !!

يقول عمرو بن معدى كرب :

ولقــــد أحمــلها كـــارهة … حين للنفس من الموت هـرير !!

ويقول :

فجاشت إلـىّ النفس أول مرة … فرُدَّت على مكروهها فاستقرت !!

---

(١) الأنفال : ١٠ … (٢) الأنفال : ١٣

ويقول آخر :

أقول لها إذا جشأت وجاشت ! مكانك تُحمدى أو تستريحى !!

وذاك هو السر فى هذه الآية « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولّوهم الأدبار»[(١)].

قاوم حبَّ العيش ، واطلب الموت توهب لك الحياة ! أومُتْ شهيدا كهذا الذى قيل فيه :

تردّى ثياب الموت حمرا فما أتى لها الليل إلا وهى من سندس خضر !

إن القلة الشجاعة فى بدر كشفت أن الكثرة المشركة سراب ، وبددت شملها فى الصحراء ، فهى بين قتيل وأسير !

كيف حدث هذا ؟ يقول الله سبحانه مبينا صنيعه « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم »[(٢)].

إن الخطة التى رسمها القدر استدرجت جبابرة مكة إلى مصارعهم ، ما أغنى عنهم عدد ولا عدَّة ، أما القلة التى استغاثت بالله واستنزلت نصره فقد فازت فوزا عظيما .

* * *

فى سورة الأنفال ستة نداءات صارمة تحتاج إلى تأمل !

إن الأسلوب لم يتجه إلى تهنئة المنتصرين بما أتيح لهم من نصر ، بل اصطبغ بالشدة والتأديب وقمع الغرور !

من هذه النداءات الستة نداءان بطلب الثبات ورفض الفرار وتوعُّدٌ عليه بعظائم الأمور .

والصحابة ما فرَّ منهم أحد أو فكَّر فى فرار .

ويبدو لى أن الطابع الشديد للوحى ، فى أعقاب النصر الواقع ، يرجع إلى إبراز دور القدر فيما ناله المسلمون من ظفر ، وإلى استنكار التطلع إلى الغنائم والتنازع عليها ، وإلى الاحتياط ألا يقع مثل ما وقع فى أحد بعد ذلك !!

وقد وصف الله المشركين بما هم أهله ، ومع كل وصف ورد نجد نصحا للمسلمين ألا يشبهوا القوم وأن يكون مستواهم أعلى !

لقد وصف الله الكفار بأنهم دوابّ لا تعى ولا تعقل ، وأنها تعيش فى نطاق غرائزها لا تعدوه .

وأن الطمس الذى شملهم جعلهم لا يسمعون شيئا مما يقال لهم .

---

(١) الأنفال : ١٥ (٢) الأنفال : ١٧

ولو سمعوا وعرفوا ما يطالبون به فإن الكبر المسيطر عليهم يمنعهم من الاستجابة .

وقد نادى الله المسلمين قبل هذا الوصف الذميم ألا يشبهوا الكافرين ! « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولّوْا عنه وأنتم تسمعون . ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون»[1] !!

لا شك أن هذا تأديب شديد للمنتصرين . . وبعد وصف المشركين بالحيوانية فى قوله «إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . . »[2]. اتجه الخطاب إلى المسلمين ليرتفعوا عن هذا الدرك الذى هوى إليه عدوهم .

« يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . . . »[3].

ومضى هذا التأديب فى سياق حافل بالنذر ملىء بالوعيد المقلق ! مثل قوله تعالى «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه . . . »[4]. وقوله «واتقوا فتنة لا تصيبن الذى ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب »[5].

هذا هو التعليق على النصر بعد خمس عشرة سنة من الآلام !!

علام يدلّ ذلك ؟ على أن سائق النصر لعباده يرفض أى شبهة من غرور أو خيلاء ، إن الله هو الذى أذل الكفر وأهله ، هو يؤدب المسلمين المنتصرين بأدبه حتى لا تسكرهم خمرة النصر ، فيسيروا بين الناس مستكبرين .

ولذلك يقول لهم « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس، فآواكم ، وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون »[6] .

إنه ـ جل شأنه ـ ذكّرهم بما كانوا فيه من هوان وذلّ حتى يمحو كل ذرة من جاه أو تطلع إلى مال .

ثم وجّه إليهم هذا التحذير القوىّ « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم »[7].

فى جميع المعارك القديمة والحديثة يعود المنتصرون مَزْهوِّين ، تنثر فوق رءوسهم الورود ، وتغتفر لهم الخطايا ، وتكال لهم المدائح .

---

(١) الأنفال : ٢٠ ، ٢١ (٢) الأنفال : ٢٢ (٣) الأنفال : ٢٤
(٤) الأنفال : ٢٤ (٥) الأنفال : ٢٥ (٦) الأنفال : ٢٦
(٧) الأنفال : ٢٧ ، ٢٨

أما المنتصرون فى أول معركة كبيرة بين التوحيد والشرك ، بين العقل والحماقة ، بين الحرية الدينية والاستبداد الأعمى فإن كتاب الإسلام يوجِّه لهم النصائح ، ويعلمهم الاعتدال . .

ونحن نسوق هذا الدرس للمستشرقين الذين عميتْ قلوبهم فحسبوا «بدرا» أول المظاهر لعنفوان الإسلام وعدوانه . . . . !!

وعاد السياق إلى ما قبل بدر أو إلى ما قبل الهجرة ليشرح كيد المشركين للإسلام ونبيه .

لقد كان رسول الله بأمر ربه يقول لهؤلاء الكفار : « قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون . قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم »[1] .

فماذا كان موقفهم ؟ الاضطهاد العام والتهديد للرسول نفسه بالسجن أو القتل أو النفى «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك . ويمكرون ويمكر الله . والله خير الماكرين »[2].

والمفروض أن الناس إذا تحيروا وتشابهت أمامهم الطرق أن يقولوا : «اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه . وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه » ولكن هؤلاء الجبابرة يقولون « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »[3].

إن الكفر فنون شتى ، وهناك كفر دون كفر !

ولعل أقبح أنواع الكفر وأجدرها بالنكال إنكار الألوهية بتَّة ! يليها الشرك بالله والزعم بأن لله أولادا .

وهناك رؤساء للكفر يعبدون أنفسهم فى ظل التعطيل والتعديد .

وولاؤهم للكفر باق ما بقيت لهم شهواتهم وأهواؤهم التى يقدمونها على كل شىء .

وهناك دهماء تعتقد صحة ما تفعل وتخلص لله «أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنا . . . »[4].

وقد كان فى مشركى العرب من يظن مخلصا أن الأصنام تنفع وتضر ، وأنها مفاتيح لله الأكبر !!

والمعروف أن الأنبياء دعاة إلى التوحيد الخالص ، وهم محتاجون إلى زمن يعالجون فيه هذه الأخلاط الشاردة ، ولذلك يقول الله لنبيه « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ـ تجتهد فى تبصرتهم ـ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »[5].

---

(١) سبأ : ٢٥ ، ٢٦ (٢) الأنفال : ٣٠ (٣) الأنفال : ٣٢

(٤) فاطر : ٨ (٥) الأنفال : ٣٣

هل يعنى موقفهم هذا أنهم لا يستحقون العذاب ؟ كلا ، إنهم ظلمة للناس ولأنفسهم « وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدُّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون » [1].

إن عبادتهم المغشوشة لا تجديهم ، وعبثهم حول الكعبة لا يسمَّى عبادة ، إنه صفير وصدى يتجاوب بالشرك ، والطائفون الحقيقيون حول الكعبة هم الذين يذكرون الله وحده ، ويُحيُّونه بالباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . . .

والمشركون لا يفعلون شيئا من هذا . . . إنهم بذلوا جهودهم فى حرب التوحيد ، وأنفقوا أموالا طائلة فى التأليب عليه والإحاطة به وهيهات أن يفلحوا .

«إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » [2].

وها هم أولاء قد غلبوا وحلّت بهم هزيمة ما حقة فماذا هم صانعون ؟ .

هنا يعرض الرسول عليهم التوبة ، والانتهاء عن الكفر والفتنة ، وعندئذ يعيشون موفورين «قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين » [3].

إن المصرِّين على الظلم لن يجنوا إلا الندم ، وقد هلكت من قبل عاد وثمود وخير لقريش أن تتوب ، وإلا استؤنف القتال حتى تنقطع الفتن ، وتستقر حرية التدين « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله . . . » [4].

* * *

الْتوَى السياق بالمتطلّعين إلى الغنائم ، وتجاوز تنازعهم فيها ، ووجّه إليهم نداءات متتابعة أن يستقيموا على منطق الإيمان والفداء الذى التزموا به منذ خرجوا للقتال .

وبعدئذ نزلت الآية بتخميس الأنفال فجعلت خمسا فى وجوه الخير وتركت الأربعة الباقية للمقاتلين « واعلموا أن ما غنتم من شىء فأن الله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . » [5]. الخ

وظاهر من سيرة الرسول وصحابته أن هذا التخميس ليس حكما دائما لازما .

---

(١) الأنفال : ٣٤ — (٢) الأنفال : ٣٦ — (٣) الأنفال : ٣٨

(٤) الأنفال : ٣٩ — (٥) الأنفال : ٤١

فقد خضعت الغنائم لتقسيمات أخرى مناسبة ، آخرها ما وقع فى أرض السواد ومصر وغيرهما على نحو ما فعل عمر !

وقضية الغنائم تحتاج إلى تعليق مهم ، فإن السلف الأول كانوا يجاهدون متطوعين لا ينالون أجرا .

وكان الذى يخرج من بيته يشترى سلاحه من ماله الخاص ، ويدع لأهل بيته نفقاتهم من جهده وحده .

ويتعَّهد عُدّته للقتال دون انتظار عون من حكومة قائمة !!

فهل جعل الغنائم للمقاتلين ـ والحالة هذه ـ يعتبر عملا مستغربا ؟ إنه مسلك معقول .

لكن إذا تغيرت الأوضاع وأنشئ جيش منظم ،ودفعت رواتب للجنود ووضع فى أيديهم السلاح ، وضمنت مداواة الجرحى وكفالة الشهداء فلا لوم على الدولة إذا تصرفت فى الغنائم بأسلوب آخر . !

ونلاحظ أن آية الغنائم جاءت معترضة بين أمرين .

الأول وصف عدوان الكافرين الذين ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله ويبذلون قصاراهم لفتنة المستضعفين ، وفرض ضلالهم بالسلاح !

والثانى وصف الهديّة التى ساقها القدر إلى المسلمين حينما يسرَّ لهم نصرا غاليا لم تكن لهم يد فى ترتيب مقدِّماته «إذ أنتم بالعدوة الدنيا ، وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا . ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا مَنْ حيَّ عن بينة وإن الله لسميع عليم » [1].

وظاهر أن الله تبارك اسمه قمع كبرياء الجاهلية بضربةٍ لم تخطر ببالٍ أفقدت المشركين رشدهم ، وبعثرتهم خزايا فوق رمال الصحراء !

وشدّت أصلاب المسلمين ونضَّرت وجوههم وَعوَّضتهم فى ساعة ما عانوه خلال خمس عشرة سنة !!

لقد كان يوم بدر يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، جمع التوحيد وجمع الشرك ، فأذل الله معاطس طالما استكبرت بالباطل وأنعش مؤمنين طالما صابروا الليالى المعنتة !

ثم جاء بعد هذا العرض للوقائع النداء السادس فى سورة الأنفال ، وهو النداء الأخير .

---

(١) الأنفال : ٤٢

وقد تضمن ست نصائح لبلوغ النصر ، واستدامته !!

قالوا . إن بلوغ القمة يحتاج إلى جهد كبير ولكن التربُّع فوقها وطول المكث فيها يحتاج إلى جهد أكبر.

ولعل ذلك ما تقصده الآية الكريمة وهى تحصى ضمانات النصر وحوافظه على مر الأيام .

قال تعالى : «يأيها الذين آمنوا : (١) إذالقيتم فئة فاثبتوا (٢) واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون(٣) . وأطيعوا الله ورسوله (٤) ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم (٥) واصبروا إن الله مع الصابرين (٦) . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله . . . . » [١] .

والثبات حين البأس يتطلب نفسا مفعمة باليقين والتضحية ويعجبنى قول الشاعر.

وقد كان فوت الموت سهلا فردّه　　　إليه الحفاظ المرُّ والخلق الوعر . . . !!

وقد كان عبد الله بن رواحة نموذجا نبيلا وهو يكبح نوازع الحياة فى دمه ويرغم النفس على شرف الفداء وملاقاة الردى قائلا :

يا نفـس إلا تُقتـلـى تـموتى　　　هـذا حمـام الـموت قـد صَليت

ومـا تـمنيت فقـد أعـطيت　　　إن تفعلـى فعلهمـا هـُديت . . !

يقصد زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وقد استشهدا قبله ، وكانا أميرى الجيش فى مواجهة الرومان .

فلحق بهما ثابتا كريما واجتمع الثلاثة فى ديار النعيم فى الجوار الكريم !!

وذكْر الله الشعور بقرب لقائه وأن المصير إليه والكفاح من أجله .

وإذا كان المرء قلقا على فراق أحبة يغادرهم فإن الله من بعده هو متوليهم وكافلهم . .

وطاعة الله ورسوله لابد منها لإحراز النصر ودوامه .

وإذا كان أعداء الإسلام يعصون ربا لا يعرفونه ولا يوقرونه فحريٌّ بالمسلمين أن يلزموا الطاعة ويحذروا المخالفة وأن يتقوا النار التى أعدت للكافرين .

وقد كان عمر بن الخطاب يوصى جنده وهم يقاتلون الفرس بالبعد عن المعاصى ويقول لهم إنه لا يخاف عليهم كيد عدوهم قدر ما يخاف عليهم تسلل المعاصى إليهم .

---

(١) الأنفال : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧

فإنهم إذا استووا والكفار فى المعصية وكلهم الله إلى أنفسهم وهم أقل عددا وأضعف عدة فتحيق الهزيمة بهم . . !!

وأنا أستشعر الأسى عندما أرى أخلاقنا أضعف من عدوّنا ، ومسالكنا أردأ فأنى ننتصر ؟ ثم تجيء وحدة الكلمة والابتعاد عن أسباب النزاع !!

والمسلمون اليوم خمس العالم ، وأرضهم مستنقع لجراثيم الفرقة كلها ، فهم سبعون حزبا بأسهم بينهم شديد ،على حين ترى اليهود ـ وهم عشر معشارهم ـ قد وحّدوا صفّهم ، وقاتلونا جبهة متساندة متعاضدة فنالوا منا وما نلنا منهم شيئا .

وحاصروا المسجد الأقصى ونحن مشغولون بأنفسنا وقضايانا ، فذهبت ريحنا وفُلَّ حدنا . . !

أما الصبر فهو على الطاعة ، وعن المعصية ومع تتابع الأرزاء !

ولن تطيق الصبر شعوب تبحث عن الشهوات وتألف الأهواء !!

وأخيرا فإن القتال الإسلامى شرطه الأول أن يكون فى سبيل الله ، أما القتال الذى ألفته شتى الحكومات فهو قتال عصبيات ، وبحث عن الحطام وإعلاء لكلمة الطاغوت ، واستغلال للمستضعفين فى الأرض ، فلا عجب أن تكون مصارع هؤلاء ، فى معاركهم على نحو ما وصف الله .

« ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » [١].

وسِيَرُ الطغاة متشابهة ومصايرهم واحدة « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب » [٢].

إن العصور تختلف ولكن سنة الله واحدة فى الأولين والآخرين .

* * *

---

(١) الأنفال : ٥٠ ، ٥١

(٢) الأنفال : ٥٢

قال رجل جاهلىّ يرثى أولاده الذين قتلوا فى معركة بدر :

ألا قـد سـاد بعـدهم أنـاس ولولا يوم بـدر لـم يسـودوا !!

نعم ، كان يوم بدر له ما بعده ، فقد ارتفعت كفة المسلمين وانخفضت كفة المشركين وزال عنهم ما كانوا فيه من كبرياء وخفض عيش !

إن أيام النعمة لم تزدْهم إلا عتوا وصلَفا فلتزل هذه النعمة وليفقدوا سنادهم على الظلم «وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » [١] .

وهكذا يصنع الله بكل من جحدوا الفضل وكفروا العطاء من الأولين أو الآخرين .

«ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » [٢].

إن الشكر قيد النعم وحافظها فإذا انفك القيد طارت النعم فى كل فج .

ويتأكد هذا المعنى فيما وجِّه إلى أسرى بدر من توجيه حاسم :

« يأيها النبىّ قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم . وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم » [٣].

ويشبه اليهود المشركين فى العقوق وكفران النعمة والعيش على ما يحلو لهم ونسيان تقلب الليالى .

فهم لا يوفون إلا إذا كان الوفاء منفعة لهم فإن لم يكن مجديا عليهم نكثوا .

ولذلك نزل فيهم قوله تعالى « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون » [٤].

وهؤلاء لا يصحون من غمرتهم إلا تحت سياط الهزيمة الموجعة ولذلك قيل للرسول : اضرب من يلقاك ضربة تخيف مَنْ وراءه . . !

---

(١)النحل : ١١٢

(٢) الأنفال : ٥٣

(٣)الأنفال : ٧٠ ، ٧١

(٤) الأنفال : ٥٥ ، ٥٦

«فإما تثقفنَّهم فى الحرب فشرِّد بهم مَنْ خلفهم لعلّهم يذكرون . وإمَّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » [١].

وما دام الظلم لا يُرْدَع إلا بالسيف فليحمل المسلمون السيف !

وما دام الانصاف لا يتحقق إلا بالقتل فليخض المسلمون المعارك ! حتى يرتفع لواء العدالة . . !

إننا حراص على السلام وفى ظلّه نبلغ رسالتنا وافرين فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

لكن ما العمل إذا كُمِّمَتْ أفواهنا ، بل إذا أوجع المسلم خسفا حتى يترك دينه ؟؟ ما بدٌّ إذن من قتال !

والمثير أن فوارق العدد لا وزن لها فى هذا القتال ، فالقلّة تتصدّى للكثرة . والواحد يثبت أمام العشرة .

والسبب أن الله ظهير للمؤمن إذا قاتل ، فهو عندما يضرب تضرب معه قوى الأرض والسماء ، إنه غطاء لقدرة الله المنتقم من أعدائه بعدما تَوقَّحوا وتبجَّحوا .

وهذا معنى الآيات « يأيها النبىّ حرض المؤمنين على القتال . إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » [٢].

وأنا مع المحققين فى أن هذا هو الحكم الأصلى الثابت الدائم .

وأن الثبات أمام اثنين هو عند الضعف الطارئ أو الظرف العارض المخفف .

فإذا زال رجع الحكم إلى أصله وهو تصدِّى الواحد لعشرة ! !

وذلك معنى قوله تعالى « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا . فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين » [٣].

وفى الحروب العادية يستطيع بعض الجنود المتحصّنين فى معاقلهم أن يقاوموا جيشا جرارا .

وفى حرب العبور الأخيرة استطاعت ثلة من الجنود المشاة أن تمزق فرقة من المدرعات اليهودية .

وعلمت أن جنديا مصريا أوهم العدوّ أن معه قنبلة يدوية ورفع ذراعه مستعدا للهجوم فرفع الجنود اليهود أيديهم مسلِّمين وقادهم أمامه أسرى ! !

إن الروح المعنوية للمقاتل الفدائى تجعل الواحد جمعا . .

---

(١) الأنفال : ٥٧ ، ٥٨ (٢) الأنفال : ٦٥ (٣) الأنفال : ٦٦

«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » [1] . .

وختمت سورة الأنفال بآيات شرحت الرباط الذى يشدّ العالم الإسلامى ـ على تنائى أطرافه ـ ويجعله جسدا واحدا إذا اشتكى بعضه اشتكى كله .

هذا الرباط هو الأخوة المشتركة فى نصرة رسالة واحدة !

إن الدين رحم بين أهله لا يجوز قطعها والمسلمون أمة واحدة يسعى بـذمَّتهم أدناهم وهـم يد على منْ سواهم .

وعدد المسلمين اليوم يماثل عدد أهل الصين نحو مليار ومائتى مليون إنسان .

فهل الأخوة الإسلامية تربط بين المسلمين كما تربط القومية الصينية بين الصينيين ؟ الذين تمثلهم دولة و احدة لها صوت فى مجلس الأمن إذا اعترض قرارا وقفه ؟ وواجه الدنيا بموقف حاسم؟ .

يقول الله تعالى فى خواتيم هذه السورة «إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا . . . » [2].

لقد تخلفوا عن قضية مصيرية فلا حق لهم فى نصرة . .

أما الكافرون فهم على اختلاف مللهم أمة واحدة ينبغى أن يروا منا وجها واحدا وفكرا واحدا «والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » [3]. والغـريب أن الأمة التى يجب أن تدور أمورها على مـحور واحد تقطعت فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك .

وهى تضم الآن نحو سبعين جنسية لكل جنسية رايتها المميزة ! !

فهل تتساند فى نصرة قضاياها أم تتخاذل ؟

إن المسلمين فى هيئة الأمم أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، بل قد رأينا مسلمين يصارحون بأن نداء الإيمان لا يعنيهم ، ولا يستجيبون له ولا يَخِفُّون لطاعته ! !

وفشت بدعة التعصب للقوميات ، وآخر الجروح الدامية فى كياننا المثخن بدعة التعصب للقوميةالعربية أو البعث العربى بعد تجريد العروبة من الإسلام ! !

---

(١) البقرة : ٢٤٩ (٢) الأنفال : ٧٢ (٣) الأنفال : ٧٣

وماذا تساوى العروبة إذا فرغت من الإسلام ؟ .

وذلك كله يقع فى أيام نحسات استيقظ فيها بنو إسرائيل وجعلوا التعصب لنحلتهم أساس الحياة ، ووالتهم الصليبية العالمية واعتبرت أطماعهم فى بيت المقدس والأرض المقدسة مسلكا لا غبار عليه ولا مكان لاعتراضه .

إنه لا حلّ لمشكلاتنا إلا باعادة الإيمان إلى مكانته فى أوضاعنا المحلية والعالمية على سواء . . . .

* * *

سورة التوبة

نزلت سورة براءة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر شهرا .

أى بعد مرور اثنين وعشرين عاما على بدء الوحى . كانت السياسة المتبعة خلالها فى معاملة أعداء الإسلام هى «وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون » [1].

وهى سياسة ـ كما يرى كل منصف ـ لا إكراه فيها على دين ولا مبادأة فيها بهجوم !

ولكن أعداء الإسلام من مشركين وكتابيين رفضوا أن تشقّ الدعوة طريقها المسالم واشتبكوا معه فى قتال انتهى بهزائمهم .

فهل اعترفوا بالواقع وتراجعوا عن العدوان . . ؟ كلا .

لقد كانوا كالثعلب الذى يتماوت ليظفر بالحياة ويستأنف الغدر والفتك !

وتحوّلوا فرادى وجماعات إلى فلول تجور على حقوق المسلمين وتنال من مكانتهم . فلم يكن بد من منازلة العابثين وإلزامهم حدود الأدب .

وهذا معنى البراءة التى صدرت عن الله ورسوله ضد هذه القوى الخائنة . !!

والمؤسف أن بعض الناس جاء إلى الوحى النازل وشرع يتعسف فى تفسيره

فهو يقسم الجملة قسمين يأخذ بأولها وينسى آخرها . مثل قوله بأن السورة شنّت حربا هجومية على الكفار جميعا . مستدلا بقوله تعالى « وقاتلوا المشركين كافة » [2]. وناسيا بقيتها «كما يقاتلونكم كافة» !!

ومثل فهمه كلمة « الناس » فى قوله تعالى « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر»[3].

فقد فهم أن كلمة الناس تعنى البشر قاطبة !!

ونسى الاستثناء والتعقيب الواردين بعد هذا العموم .

---

(١) يونس : ٤١ (٢) براءة : ٣٦ (٣) براءة : ٣

وهما أولا قوله تعالى « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا . . . »[1].

فالمعنى واضح حاسم فى أن الحرب ضد قوم معينين ظاهروا علينا العدو واستباحوا حقوقنا .

وهل علينا من جناح فى حرب هؤلاء ؟ .

أما التعقيب فهو بالغ الأهمية . ذلك أنه فى أثناء تأديب المعتدين يظهر أقوام لا ناقة لهم فى الحرب ولا جمل !

لا يريدون قتالا ولا يفكرون فيه !

هؤلاء أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بتأمينهم وطمأنتهم وإعادتهم سالمين إلى أرضهم « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لايعلمون»[2].

فأين الحرب الهجومية فى هذا السياق النبيل ؟ .

ويظهر أن الذين فهموا أن السورة إعلان حرب عامة على الكفر نظروا إلى القتال الذى وقع فى مصر والشام والعراق بعد ذلك ، وامتد حتى قضى على دولة الفرس ، وقصم دولة الروم . . .

وهذا فهم خاطئ كان له مساغ لو أن المسلمين وجهوا جيوشهم إلى رومة والمدائن مباشرة .

ولكن هذه الامبراطوريات الباغية كانت تحتل أراضى ليست لها ، وتستذل جماهير مغلوبة على أمرها .

فدارت الحروب معها على تحرير الأراضى والشعوب ومنع الاستغلال والاستذلال .

وعرض الإسلام بعد ذلك على الشعوب المحررة التى سرعان ما رغبت فيه وذادت عنه . . !!

إن سورة براءة بريئة من التحريض على العدوان وتشريع الحرب الهجومية على الأبرياء والمسالمين ولننظر إلى صدر السورة مرة أخرى فماذا نرى ؟ .

لقد أعطى الإسلام مهاجميه مهلة قدرها أربعة شهور ليروا رأيهم ويرجعوا عن خطئهم «فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مـخزى الكافرين »[3].

والمعنى أن المهلة ليست عن ضعف فلا تنخدعوا بقواكم المزعومة فعاقبة الغدر وخيمة . .

وقد أعلنت هذه المهلة يوم الحج الأكبر الذى يجمع العرب كلهم ، المؤمن والمشرك ، من له عهد ومن لا عهد له حتى يكون الأمر واضحا كل الوضوح فلا عذر لأحد .

---

(١) براءة : ٤ (٢) براءة : ٦ (٣) براءة : ٢

وزيادة فى الشرح ، وزيادة فى كشف دخائل المشركين وخبث طواياهم وحسما لكل اتهام بالعدوان من جانبنا عادت السورة تقول :

«كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ـ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ـ » [١] .

انظر إلى حرصنا على الوفاء لمن وفى !! أما أهل الغدر فكيف نحفظ لهم عهودا ما حفظوها ؟ .

«كيف و إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاًّ ولاذمة ـ لا يمينا ولا عهدا ـ يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدُّوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون »[٢] .

نحن لم نعتد ولم نفكر فى عدوان ولا نرتضى لأنفسنا هذا الوصف !

ويبدو أن المسلمين كانوا يشعرون بقلق من تبعات هذا الموقف ، ويدركون أن أعداءهم أقوياء ، وأن قوتهم هى التى تدفعهم إلى مناوشة المسلمين والجور عليهم !!

وقد كره القرآن الكريم هذه الرهبة فقال محرضا المسلمين على المقاومة وتأديب الغادرين « . . . فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان له لهم لعلهم ينتهون » [٣] .

أتنتظرون البرّ بأيْمان ، أو الوفاء بعهود ممن لا دين لهم ؟ .

ثم ازداد التحريض على تأديب الغادرين والناكثين فقال جل شأنه « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين»[٤] .

وعند متابعة السياق ترى أن القوم الذين أمرنا بمحاربتهم ما كانوا أهل سلام ولا وفاء .

وأنهم أساءوا إلى المسلمين طويلا ، وملأوا صدورهم غيظا وألحقوا بهم إهانات وجراحات شتى .

«قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويُخْزهم ، وينصرْكم عليهم . ويشف صدور قوم مؤمنين . ويُذْهبْ غيظ قلوبهم . . . »[٥] .

أتجد فى هذا السياق أية إشارة لهجوم على قوم آمنين ؟ .

أو تعَرُّض لطوائف من المسترسلين المسالمين . . ؟ .

---

(١) براءة : ٧ (٢) براءة : ٨ ، ٩ ، ١٠ (٣) براءة : ١٢

(٤) براءة : ١٣ (٥) براءة : ١٤ : ١٥

الحق أن وصف سورة براءة بأنها غيرت مجرى الحرب فى الإسلام جهل كبير .

فقد كنا وما زلنا وسوف نبقى نسالم من سالمنا ونحارب من حاربنا ، نعتمد فى دعوتنا على الشرح الوافى والبلاغ المبين ، مع رفض للدنيَّة وأنفة من الذلّ والهوان

عوملت الوثنية العربية خلال ثنتين وعشرين سنة ـ قبل نزول براءة ـ بأحكم وأرحم ما يعامل به نظام خرافى يريد فرض سيطرته للأبد !

فى مكة كان الإسلام دينا خارجا على القانون لا اعتراف به .

وبعد الهجرة إلى المدينة خاض المسلمون مع أعدائهم نحو ثلاثين معركة وسرية .

ترى كم بلغت خسائر الوثنية العربية فى هذه الحروب؟ لقد ذكرت فى بحث سابق أن قتلى الكفار حوالى مائتين فى هذه الوقعات كلها . . . !!! أى عشر معشار مذبحة «سان بارثلميو» فى باريس التى وقفت تقدم البروتستانت فى فرنسا الكاثوليكية !!

كان المسلمون فى أثناء ثنتين وعشرين سنة يناشدون الكفار أن يعقلوا ، أو أن يعدلوا إذا لم يعقلوا!!

واستمع إلى نغمة الإخلاص والحب فى قوله تعالى «فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير » [1].

ولكن هذه المناشدات لم تجْدِ فتيلا ، وبدا أن مبدأ « لكم دينكم ولى دين » [2]. مرفوض ، وأننا نريد حياتهم ويريدون قتلنا !!

وكان العلاج الإسلامى لهذا الموقف النابى ـ بعد أن استمكن المسلمون من السلطة ـ أن قالوا لأعدائهم : دعوا هذه الأرض لنا ، وسيحوا فى أرض الله الواسعة !!

إنكم تضيقون برؤية الإسلام فى بلد ، وتكيدون لأهله ما استطعتم ، وتتربصون به الدوائر ، ولا ترضون أن تقبعوا بكفركم فى دوركم .

إننا لن نقتلكم ولكننا نتحصَّن من فتنتكم فاذهبوا حيث شئتم ودعونا وشأننا!

وانضم إلى هذه الأمر شىء آخر هو : لا يَحُجَّنَ بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان .

وهو أمر مفهوم لقد حُطِّمت جميع الأصنام التى كان يعبدها المشركون حول الكعبة ففيم الطواف إذن ؟ .

---

(١) الشورى : ١٥ (٢) الكافرون : ٦

أما التعرّى عند الطواف فمقبحة من المقابح لا يأذن بها دين محترم ، وإنما تفهم مع اختلاط الوثنية بالبهيمية . . !!

ولذلك جاء فى السورة الكريمة « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله . . » (١).

لقد كان رب العالمين يعلم أن أجل رسوله سوف ينتهى بعد عام وثلاثة أشهر من نزول سورة التوبة .

وترك القافلة بعد وفاة قائدها تواجه هذه الفتن العمياء ليس من مصلحة الدعوة .

لقد تبجح الشرك طويلا ولم يبق إلا الفراغ منه ليتوجه المسلمون إلى تأمين دعوتهم فى شمال الجزيرة بعد أن هددها الرومان !

ومع أن «براءة » ألحقت بالوثنية ضربة خطيرة إلا أن الوثنيين اختفوا وفى طواياهم نيّة الغدر .

وما كادوا يسمعون بمْوت محمد عليه الصلاة والسلام حتى انتقضت جموعهم وحسبوا أن الليل سوف يعود مرة أخرى فعالنوا بالردة .

وتمردت جيوشهم فى ميادين شتى فتصدى لها الموحدون بقيادة أبى بكر وما زالوا يقاومونها حتى أخمدوا أنفاسها واستتب الأمر للإسلام . « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . . . » (٢).

وتفرغ المسلمون لمقاومة الرومان الذين أوصدوا الأبواب أمام الدعوة الإسلامية شمالىّ الجزيرة .

ولا بأس أن نشرح مرة أخرى التزامنا أمام دعوتنا .

نحن لا نحارب مُعتدين ولا نكره أحدا على اعتناق دين !

إننا نعرض الإسلام فقط على الآخرين « . . . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٣).

فإذا آثر أحد الكفر قلنا له : لا عليك ، ولن يصيبك منا أذى !

كل ما نطلبه منك أن تتركنا ندعو غيرك ، وألاّ تتعرض لهذا الغير إذا استجاب لنا .

إن الإسلام فى نظرنا هو العلاقة الفذة بين الله وعباده ، وقد كلفنا الله بالبلاغ وإيقاد الضوء أمام من يجهل .

فلا تعترض طريقنا ونحن نبلغ الناس .

---

(١) براءة : ١٧ ، ١٨ (٢) الرعد : ١٧ (٣) الكهف : ٢٩

ولا تعترض الآخرين إذا شرح الله صدورهم للحق . فإن ارتضى هذا الحياد فأمره معنا كما قال تعالى «فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » [(١)].

وإن قال : بل سأمنعكم من البلاغ وأمنع الآخرين من الاستجابة ، قلنا له لقحت الحرب بيننا وبينك .

فإن نصرنا الله عليكم جردناكم من السلاح الذى استخدمتموه فى العدوان .

ويسرنا لكم أن تحيوا معنا آمنين على أموالكم وأعراضكم .

وتولينا نحن عبء الدفاع عنكم إذا تعرض لكم أحد بسوء .

وغرضنا أن تستبينوا حقيقتنا ، وتتكشف لكم خبيئتنا ، ثم كلفناكم فى نظير ذلك بعض المال الذى ننفقه فى الدفاع عنكم وعن شعائركم . .

وهذه هى الجزية التى كثر اللغط حولها .

وهذه هى ملابسات فرضها ، إنها لا تفرض على محايد آثر البعد ابتداء عن مصارعتنا !

وإنما تفرض على من قرر قتالنا ، أو أعان بنفسه وماله المعتدين علينا . .

والناظر فى آية الجزية يرى أنها أحصت مثالب مَنْ ضُـربَتْ عليهم ، وكشفت عن فقدانهم للإيمان بالله واليوم الآخر ، واقترافهم فنون المعاصى ، وخروجهم جملة عن سَنن الأنبياء .

«قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » [(٢)].

وجاء فى صفاتهم بعد ذلك أنهم يؤمنون بسياسة تكسير المصابيح ، ونشر الظلام «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره » [(٣)].

وأن أحبارهم ورهبانهم مهرة فى أكل أموال الناس بالباطل والصدِّ عن سبيل الله . . . .

وتاريخ الجزية جدير بالنظر ، فإن الشعوب التى تعرفت على الإسلام من قرب سرعان ما دخلت فيه ، وقع ذلك فى مصر وخراسان وأقطار أخرى ، حتى نضبت موارد الخزانة من هذا الباب لكثرة من دخلوا فى دين الله .

وهذا هو المطلوب ، فإن محمدا بُعث هاديا ولم يبعث جابيا

* * *

---

(١) النساء : ٩٠ (٢) براءة : ٢٩ (٣) براءة : ٣٢

كانت حجة أبى بكر بالناس فى السنة التاسعة مهادا حسنا للحجة العامة التى تلتها فى السنة العاشرة وكان النبى نفسه أميرها .

إذ كانت بالمسلمين خاصة بعدما قيل فى السنة التاسعة « يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . . . . » [1].

وقد انفرط عقد الشرك وسمع المشركون فى تخاذل أن عهودهم ألغيت ، وأن التعامل بعد اليوم سيكون قصاصا عدلا فلا عبث ولا خداع .

وهكذا انتهت الوثنية بقرار حاسم .

أما اليهودية فقد تضعضت من قبل فى معارك متصلة ، آخرها ما دار فى خيبر فى السنة السابعة .

وبقى اليهود زُرّاعا فى محاقلهم أو تجارا حيث يشاءون فى المدينة المنوّرة أو غيرها .

المهم انكسار قوتهم العسكرية التى أغرتهم بالإثم والعدوان .

فهل ذلُّوا أو ظُلموا بعدما طاحت دولتهم ؟ كلا ! بقيت لهم حريتهم الفردية ، وفى ظلها الوارف أخذ أحد تجارهم درع النبى عليه الصلاة والسلام رهنا فى معاملة له . . !!

وكانت وفود النصارى تجيء إلى المدينةالمنورة ، ومن قبل إلى مكة تستمع إلى الوحى الجديد .

وقد أسلم بعضها وانشرح صدره بالحق .

وجادل البعض جدالا هادئا فى رفض الإسلام لألوهية عيسى مع تكريمه العظيم له . .

ولم يشعر الإسلام بخطر من نصارى اليمن ، أو من غيرهم .

بل جاء الخطر ـ كما سترى ـ من دولة الرومان التى صنعت ستارا حديديا حول تسلل الإسلام إلى شمال الجزيرة بعدما انتشر وسطها وجنوبها .

وهنا نلفت النظر إلى أمرين متباعدين : أولهما أن الإسلام كان صديقا للنصارى ، وأن النبىّ عليه الصلاة والسلام. أمر المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة،فى جوار ملك لا يضامون فى سلطانه!!

وأن النبىَّ محمدا كان صاحب الصوت الوحيد على ظهر الأرض أن الروم سوف ينتصرون على الفرس مرة أخرى بعد هزيمتهم الهائلة التى منوا بها ، والتى حزن المسلمون لها . . .

أما الأمر الثانى : فمع هذه الصداقة للشعوب النصرانية كان الإسلام واضحا كل الوضوح فى

---

(١) براءة : ٢٨

إنكار التثليث ورفض ألوهية عيسى وجبريل ، و اعتبارهما عبدين صالحين .

وقد تتابع الوحى فى مكة والمدينة يؤكد هذه الحقيقة .

ويطالب أتباع المسيح بتصحيح عقائدهم وإفراد الله بالوحدانية واستمداد أحكام الحلِّ والحرمة منه سبحانه وتسوية البابوات والكرادلة بسائر الخلق . .

وآخر ما نزل من ذلك فى سورة براءة ، وتُلِىَ على الناس فى السنة التاسعة «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون »[(١)].

والقرآن الكريم يعتبر اسْتفتاء رجال الدين فى الحلال والحرام وخروجهم على الجادة فى ذلك و إباحتهم الشذوذ وغيره كما وقع فى انجلترا ضربا من الشرك .

وعلى أية حال فالله فى الإسلام إلّه واحد لم يلد ولم يولد ولا كفء له وهو وحده الحاكم بين عباده . . .

وقد أحكمت دولة الرومان إغلاق الأبواب أمام الإسلام ، وقاتلت فى وقعات شتى لتبقى الإسلام دَاخل المصيدة فى وسط الجزيرة . . . فلم يبق بدّ من مقاتلتهم ! !

الإسلام يكوّن أمة دعوة ، بالحسنى لا بالإكراه .

يجب أن تبقى للحق وللخير أمة تمثله وتدفع عنه وتحسن عرضه وتستبقى شرائعه وشعائره حية . .

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون»[(٢)].

نعم من حقنا أن ندعو الآخرين ، وليس من حقنا أن نكره واحدامنهم على ما نريد .

إننا نريد حق الكلمة وحسب ، والرومان يرفضون ذلك .

و إلا فلماذا دفعوا جيوشهم إلى مقاتلة المسلمين فى مؤتة وتبوك وغيرها ؟ .

بل سنكون أكثر تفصيلا و إيضاحا ، لقد رفض الرومان كنيسة «أريوس » القائمة على أن عيسى مخلوق لا خالق .

ورفضوا كنائس الشرق التى لها رأى يخالف الفكر الرومانى فى طبيعة المسيح ، وحبسوا البطريك فى مصر وقتلوا أخاه .

---

(١) براءة : ٣١

(٢) آل عمران : ١٠٤

فهل كان الرومان يقبلون الفكر الإسلامى فى العقيدة والشريعة ، وقد صنعوا ما صنعوا فى إخوانهم ؟ .

الحق أن الإسلام كان يقاتل من أجل حرية الإيمان ، وقد دخل مصر والشام وأمّن الناس على حريتهم الدينية ، وأفرج عن السجناء

من أجل ذلك اهتم النبىّ عليه الصلاة والسلام بكسر القيود التى وضعها الرومان على الدعوة، وعبأ المسلمين كلهم تعبئة عامة لمواجهة الاستفزاز الرومانى عالما أن مستقبل الإسلام مرهون بالفوز فى هذا العراك المفروض . .

وعندما نشبت الحرب مع الروم كانوا الدولة الأولى فى العالم لقد سحقوا الفرس وثأروا لأنفسهم واستأثروا بقمة السلطة . .

ولم يكن مستغربًا أن يهتزَّ الضعفاء والمنافقون لفكرة القتال مع الرومان .

ولولا أن محمدا يستند إلى الله فى جهاده المبرور ما أقدم على هذه المغامرة . .

ولذلك جاءت بقية سورة براءة تفضح المنافقين والمتردِّدين وتستجيش القوى المؤمنة كى تؤدى واجبها الصعب .

وبدأ القسم الثانى من السورة بقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . . . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا . . » [1].

ومضت السورة تطهر الأرض من المنافقين ، بعد ما طهرت الأرض من الوثنية واليهودية الخائنة .

وذلك حتى يأمن الإسلام على نفسه فى المجتمع الذى بناه بالعرق المتصبِّب .

سورة براءة إعداد للأمة التى ستحمل الرسالة بعد وفاة قائدها ، وإخلاء للأرض من الأعشاب السامة والعناصر السيئة .وكانت مقاتلة الرومان المحكَّ الذى كشف معادن الرجال .

وسنرى صورا كثيرة لأصحاب العلل الذين يتأخرون فى ميدان الواجب ، ويخونون الإيمان وقت الشدة .

* * *

---

(٢)التوبة : ٣٨ ، ٣٩

ينتصر أهل الحق عندما يكون ولاؤهم لله أقوى من ولاء الآخرين للأنداد والشركاء « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله . والذين آمنوا أشد حبا لله»[١] .

ويتكشف ذلك فى الحياة عندما يصطرع المؤمنون والكافرون ، ويبذل كل منهم أقصى ما عنده لكسب المعركة .

ولذلك جاء فى سورة براءة « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » [٢] .

وقد صدر الأمر بمقاتلة الرومان والتصدّى لعدوانهم فى ظروف تتطلب الإيضاح :

(أ) فالرومان كانوا الدولة الأولى فى العالم ، وقد تأكدت صدارتهم بعدما هزموا الفرس هزيمة تامة..

(ب) المسلمون جزء قليل من العرب الذين حررتهم العقيدة الجديدة .

أما سائر العرب فأتباع للروم أو الفرس .

(جـ) قوة المسلمين محدودة ، وقد جربوها فى مؤتة وذات السلاسل فلم تغن شيئا .

(د) المجتمع الإسلامى تعمل فيه فتن المنافقين ، وبقايا الوثنية الصريعة وفلول من أعداء مهزومين يستطيعون الإرجاف والكذب .

ولكن الله أراد تنقية الأمة من هذه الأخلاط حتى تتفرغ لأداء رسالتها الكبرى .

وقد جاءت سورة براءة لتغربل المجتمع بقوة وتنفى خَبَثَهُ إلى غير رجعة .

فاستنكرت السورة كل تقاعس عن القتال « مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل»[٣]

ورفضت السورة الأعذار الكاذبة التى يختلفها الجبناء والكسالى « لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يتردّدون»[٤]

وفى موضع أخير من السورة صوَّرت مختلقى الأعذار للقعود ، وطلب الراحة من أعباء الجهاد «جاء المعذِّرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم

---

(١) البقرة : ١٦٥ — (٢) التوبة : ٢٤ — (٣) التوبة :٣٨

(٤) التوبة : ٤٤ ، ٤٥

عذاب أليم »[١] .

وظاهر أن أكثر الذين تخلفوا عن مقاتلة الروم قوم خربو القلوب ، ضعاف اليقين ، عبيد للذة ! !

ومن المساخر أن أحدهم جاء يعتذر عن الخروج بأنه لايصبر عن نساء الروم ، فلو ضمن له رسول الله العفّة خرج ! !

وأحسبه لوخرج لطاردنه أولئك النسوة وهو يولِّى . الأدبار « ومنهم من يقول : إئذن لى ولا تفتنى ، ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين»[٢]

إن جمهور المنافقين كان فى قرارة نفسه يكره الإسلام ، ويتمنى له الهزيمة ، وقد يتستر مخفيا هذه المشاعر .

وطبيعى أن يتعرض المجاهدون للحلو والمر والهزيمة والنصر ، وفى هؤلاء نزل قوله تعالى « إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون . قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[٣] .

لقد كانت غزوة العسرة ، أو تبوك هى المناسبة التى فجرت براكين الغضب الأعلى على أهل النفاق كلهم ، وفضحت خباياهم ووصفت مؤامراتهم وحذرت من الانخداع بهم .

وكان لابد من هذا الكشف حتى يستقبل المسلمون عهدًا أنظف لاسيما ورسول الله تاركهم بعد عام كما سبق ذلك فى علم الله .

والنفاق سوس المجتمع ولاتنجح أمة يسودها المنافقون وإن ساندتهم ثروات طائلة ، وأسر كبيرة !

« فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون »[٤]

ومضت السورة الكاشفة تفضح خلال المنافقين . .

فهذا صنف يرى أن الرسول جاءته أموال فهو يطمع فى الإصابة منها ، فإن أُعطىَ رضى ، وإن حُرم سخط !

إن بواعث رضاه وسخطه منفعته الخاصة . ! ! « ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون»[٥] .

---

(١) التوبة : ٩٠ (٢) التوبة : ٤٩ (٣) التوبة : ٥٠ ، ٥١

(٤) التوبة : ٥٥ (٥) التوبة : ٥٨

وبعض المنافقين اتخذ مسلكا خسيسا قال : نقول فيه ماشئنا ثم نذهب إليه ونحلف له أنّا ماقلنا فيقبل قولنا !

إنهم يستغلّون أدب الرسول وكراهيته للجدل فينالون منه « ومنهم الذين يؤذون النبىّ ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم ، يؤمن بالله ، ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم . والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم »[1] .

وللمنافقين أصدقاؤهم الذين يأنسون بهم ، ومجالسهم التى يتنفّسون فيها .

وهم لم يظهروا دفعة واحدة ، بل تمخضت عنهم مواقف شتى وجمعتم مآرب كثيرة .

وقد يزيدون وقد يقلون ، ولكن حزبهم بقى يؤوى الشاكين والمتربصين والكارهين للإسلام ونبيه .

وقد نبه القرآن إلى خطرهم فى سور شتى ، ولكن سورة التوبة تتبعتهم فى مهاربهم ومساربهم حتى ما أبقت منهم أحدا . .

ويرجع ذلك إلى أن الأمر يتصل بمستقبل الإسلام فى الحياة ، فإن قتال الرومان ليس خفيف النتائج ، ولو أن محمدًا ضعف فى هذه المعركة وأطمع أعداءه فيه لدُكَّتْ الكعبة ، ومحى الكتاب واستخفتْ عقيدة التوحيد . .

وكان المشركون والمنافقون يظنون أن محمدا وجيشه لن يعودوا من شمال الجزيرة ، وأن الدولة الرومانية سوف تبتلعهم .

وأن محمد إذا كان قد انتصر على العرب الوثنيين واليهود المعاندين فهيهات أن يحالفه الحظ ضد الرومان .

وما علم هؤلاء أن القدر يتحرك وأن الله أنزل وحيا وكتب له النصر « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»[2] . .

وكانت حركة النفاق عند التَّهيُّؤُ لمقاتلة الرومان فى ذروتها .

وكان الظن كبيرا أن يخذل المسلمون ، بيد أن أنصار الحق ثبتوا وصدقوا ووقفوا إلى جانب الله باذلين كل شىء فملكوا المستقبل .

«وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين . رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون . لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون »[3] .

---

(١) التوبة : ٦١ (٢) التوبة : ٣٣ (٣) التوبة ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨

لقد آن الأوان لمحو النفاق كما محى من قبل الشرك .

وأن يتضامَّ المجتمع المؤمن بعناصره ضاغطا على هؤلاء الغاشّين العابثين حتى يُخمِد أنفاسهم ، وتستطيع القافلة التقيّة أن تسير دون عوائق أو مثبطات .

* * *

ظهر النفاق مع نشوء الدولة الإسلامية فى اعقاب الهجرة المباركة .

ذلك أن الأوضاع تبدَّلتْ تبدلا جذريا وضاعت فرص الرياسة على طامعين فيها .

كما أن عشاق الوثنية المادية أعجزهم الإيمان الجديد وماينشره من فضائل فلاذوا بتلوُّن الوجوه ، والتأرجح بين عدة مبادئ . .

بيد أن الإسلام عالج الأمر بالمحاسنة والاصطبار ، وانتظر مع الأيام أن يؤوب الشارد ويصلح الفاسد . .

لكن المنافقين لم يرعووا ، بل زادت فتنهم التى طال الحديث عنها فى جملة من السور المدنية . .

ونلاحظ فى سورة براءة أن المواربة انتهت وأن المصارحة حلت محلها .

ففى مأساة أحد يقول الله تعالى « وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ! قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان . . »[١] .

هذا هو التعليق الخفيف فى هزيمة أحد .

أما فى تخلُّف تبوك فثم أسلوب آخر « يحلفون بالله ماقالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموّا بمالم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله . . . »[٢] .

وطلب بعض الناس أن يهب الله لهم نعمة الغنى حتى يتصدقوا ويجاهدوا . .

فلما منحهم ماطلبوا بخلوا ونكصوا ، فنزل بهم شر عقاب « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولَّوْا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه . . »[٣] .

وكان لابد من حماية المجتمع من معوِّقين خبثاء يجلسون ليتهموا بالرياء أصحاب الصدقات الكبيرة ، وينالوا بالسخرية والأذى أصحاب الصدقات اليسيرة .

---

(١) آل عمران : ١٦٦ ، ١٦٧ (٢) التوبة : ٧٤ (٣) التوبة ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧

« الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات . والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم . . »[1] .

ويظهر أن أولئك المنافقين كثروا ، وزاد عددهم حتى فكروا أن يجمعهم مكان واحد ينظمون فيه حملتهم على الإسلام ، فهداهم شيطانهم إلى بناء مسجد يهرع إليه كل ظنين ، ويقبل عليه كل مخادع .

ويستطيعون فيه النيل من الإسلام ونبيه فى ظل صلوات كاذبة وعبادات مزوّرة .

« والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل . وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى . والله يشهد إنهم لكاذبون»[2] .

واتجاه المنافقين إلى هذه الخدعة يدل على مبلغ شرهم وخبث طويتهم .

وقد هدم المسلمون هذا المسجد الذى أسموه بحق مسجد الضرار « لاتقم فيه أبدا لمسجد أسّس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أيتطهروا والله يحب المطهرين»[3].

وظلت السورة الفاضحة تتبع مؤامرات المنافقين ، وأحاديث نفوسهم ، وفلتات ألسنتهم حتى ما أبقت منهم أحدًا . . .

وكما قلنا : كان لابد من تصفية المجتمع من النفاق ، فتولى ذلك القسم الثانى من السورة بعدما تولى القسم الأول تصفية المجتمع من الوثنية .

وبهذا استعدّ المسلمون لأداء رسالتهم الكبرى فى أرجاء الأرض « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»[4]

وقد صورح المسلمون بأن نشر الرسالة يحتاج إلى بذل النفس والنفيس :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . . »[5] .

ولكن لم هذا العقد الخطير ؟ ولم توطين النفوس على هذه التضحيات الجسام ؟ .

والجواب أن الفتّانين فى الأرض لاينقطع لهم عدوان ، ولاينتهى لهم إثم !

ورسل الله كلهم لايلامون على الإعداد للجهاد إذا كان أعداؤهم لايَتَوَانَون عن الطغيان والظلم!

---

(١) التوبة : ٧٩ (٢) التوبة : ١٠٧ (٣) التوبة : ١٠٨

(٤) الأنبياء : ١٠٧ (٥) التوبة : ١١١

فى هذه السورة يقول الله : « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين »[1]

مَنْ هؤلاء الذين نقاتلهم؟ إنهم الرومان ، تدل على ذلك السورة كلها !

ولماذا وصفوا بأنهم يلوننا ؟ .

لأنهم قدموا من إيطاليا واحتلّوا الأناضول والشام وجاورونا فى جزيرتنا شرّ جوار .

كانوا هم السادة ، وكان غيرهم العبيد !

ما الذى جاء بهم ؟ الاستعمار وأطماعه !

وماذا يريدون من العرب ؟ ترك رسالتهم أو الاحتباس بها وراء الحدود التى بلغوها فى هجومهم على دنيا الناس !

هل يحترمون عقيدة أخرى غير ما يعتنقون ويتركون لهاحق الحياة ؟ كلا !

فإذا كان مالديهم باطلا وكان مالدينا هو الحق فكيف ندفع عنه إلا بنفوسنا وأموالنا ؟

إن هذا عقد أخذ على أتباع موسى وعيسى ومحمد ، أن يُعلوا كلمة الله ، ويخفضوا كلمة الكفر « وَعْدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ؟ »[2] .

والشرطى مكلف بمقاومة المجرم ولو لجأ إلى السلاح وقد قيل :

إذا لم تكن إلا الأسنّة مركبا فما حيلة المضْطَّر إلا ركوبها !!

وإنى لأنظر إلى أول السورة ثم أتدبر خواتيمها فأشعر بالعجب !

أول السورة براءة من الطاغوت ورجاله العابثين بالمعاهدات .

وآخرها تذكير برحمة الله العامة عندما أرسل نبىّ الملحمة ونبىَّ المرحمة . .

إنه نبى محارب ، يتصدّى بالسلاح لمن يحملون السلاح ، على نحو ما قال شوقى :

الحرب فى حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء !!

ولكنه فى الوقت نفسه يبحث عن السلام فى كل شبر من الأرض ، ويسعى إلى مسح الغبار عن كل جبين ، ومحو العنت عن كل محزون مُعنَت ، « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »[3] .

إنه ما قاتل حبا فى قتال ، ولكن كرها للتسلط والعدوان .

فإذاضمنت العدالة وسادت الحرية وصينت الحقوق ، فلا يلجأ إلى الحروب إلا مجرم .

من أجل ذلك ختمت السورة بهذه الآية « فإن تولوا فقل حسبى الله لا إلّه إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم»[4]

هذه هى السورة التى قالوا عنها تضمنت آية السيف !! وأعلنت الحرب على الناس . . !!

---

(١) التوبة : ٢٣ (٢) التوبة : ١١١ (٣) التوبة : ١٣٨ (٤) التوبة : ١٣٩

الفهرس



رقم الإيداع ٤٩٤٩ / ٩٢
I . S . B . N. 997 - 09 - 0101 - 6

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم

☐ هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم ، سبق أن قدمت نماذج لها فى بعض ماكتبت .

☐ والهدف الذى سعيت إليه منها أن أقدم تفسيرا موضوعيا لكل سورة من الكتاب العزيز .

☐ والتفسير الموضوعى غير التفسير الموضعى :

الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام .

أما الأول فهو يتناول السورة كلها ، يحاول رسم « صورة شمسية » لها تتناول أولها وآخرها ، وتتعرف على الروابط الخفية التى تشدها كلها ، وتجعل أولها تمهيدا لآخرها ، وآخرها تمهيدا لأولها .

ولقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع فى السورة ، وإن كثرت قضاياها .

☐ وقد شعرت ـ على ضوء ما أحسست من نفسى ـ أن المسلمين بحاجة إلى هذا اللون من التفسير.

☐ فاستعنت بالله واعتمدت عليه ، وكتبت هذه الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم على أمل أن يأتى الأجل بعد ما أفرغ من الكتابة ، والمستقبل بيد الله وحده .

☐ وانبه إلى أن هذا التفسير الموضوعى لايغنى أبدا عن التفسير الموضعى بل هو تكميل له وج
إلى جهوده المقدورة .

☐ وهناك معنى آخر للتفسير الموضوعى لم أتعرض له ، وهو تتبع المعنى الواحد فى طول القرآن
وحشده فى سياق قريب ، ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس .

وقد قدمت نماذج لهذا التفسير فى كتابىّ « المحاور الخمسة للقرآن الكريم » و «تطورات فى

ولاريب أن الدراسات القرآنية تحتاج إلى هذا النسق الآخر ، بل يرى البعض أن المستقبل ل

والله المستعان ، ،

محمد الغزالي

